سُورَةُ النَّحْلِ

مكية وهي مائة وثمان وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾﴾.

﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي الساعة، عبَّر عن ذلك بأمر الله للتفخيم والتهويل، وللإيذان بأن إتيانُه منوط بحكمه وقضائه، وإتيانُه عبارةٌ عن دنوِّه واقترابه، أو على إتيان مباديه القريبة، والمعنى: دنا واقترب ما وعدتم به أيها الكفرة، وقرب قيام الساعة ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ الخطاب للكفرة خاصة، واستعجالهم وإن كان بطريق الاستهزاء، لكنَّه حُمل على الحقيقة، ونُهوا عنه بضربٍ من التهكم، ولما نزلت هذه الآية قال النبي ﷺ: «بُعثتُ أنا والساعة كهاتين، ويشير بأصبعيه السبَّابة والوسطى»[1] ولمَّا قالوا: إن صحَّ مجيء العذاب فالأصنام تخلصنا بشفاعتها، رد ذلك فقال ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تبرأ عن أن يكون له شريك، فيدفع ما أراد الله بهم من العذاب.

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٨/ ٦٩١ ومسلم رقم ٢٩٥١ في الفتن، والترمذي رقم ٢٢١٤.

﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ ﴾ .

﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ﴾ المراد بالملائكة: جبريل عليه السلام ومن معه من حفظة الوحي ﴿ بِٱلرُّوحِ ﴾ أي بالوحي الذي من جملته القرآن الكريم، على نهج الاستعارة، فإنه يحيي القلوب الميتة بالجهل، أو يقوم في الدين مقام الروح في الجسد ﴿ مِنْ أَمْرِهِۦ ﴾ أي حال كونه ناشئاً عن إرادته وأمره ﴿ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ ﴾ أن ينزلهم به عليهم من الأنبياء والمرسلين، لاختصاصهم بصفات تؤهلهم لذلك ﴿ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ ﴾ أي ينزلهم بأن أنذروا أي بهذا القول، والمخاطبون به الأنبياء، والآمر هو الله سبحانه، والملائكة نَقَلةٌ للأمر أي أعلمُوا الناس ﴿ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ خطاب للمستعجلين، أي فخافوا عذابي وانتقامي، ثم ذكر تعالى البراهين الدالة على قدرته ووحدانيته فقال تقدست أسماؤه:

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ ﴾ .

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ ﴾ أي أوجدهما على ما هما عليه، بالحق الثابت، والحكمة الفائقة على الوجه اللائق ﴿ تَعَٰلَىٰ ﴾ تقدَّس بذاته، لا سيما بأفعاله التي من جملتها إبداع السماوات والأرض ﴿ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي عن إشراكهم المعهود.

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ ﴾ .

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴾ أي هذا النوع البشري ﴿ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ جماد لا قدرة له، سيَّال لا يحفظ شكلاً ولا وضعاً ﴿ فَإِذَا هُوَ ﴾ بعد الخلق ﴿ خَصِيمٌ ﴾ مجادل عن نفسه، مخاصم لخالقه ﴿ مُّبِينٌ ﴾ واضح الخصومة كأنه قد لُقِّن بها، لأن النفوس البشرية من أول الفطرة أقلُّ فهماً من سائر الحيوانات،

ألا ترى أنَّ ولد الدجاجة، كما يخرج من قشر البيضة يميز بين العدو والصديق، فيهرب من الهرة، ويلتجىء إلى الأم، ويميّز بين الغذاء الذي يوافقه أو لا يوافقه، أما ولد الإنسان فإنه لا يميّز حين الولادة بين العدو والصديق، ولا بين الضار والنافع، ثم بعد كبره يقوى عقلُه، ويعظم فهمُه، بحيث يعرف أصناف المخلوقات والفلكيات والعنصريات، فالانتقال من تلك البلادة، إلى هذه الكياسة، نعمةٌ عظمى من فاعل مختار حكيم، فالواجب عليه أن يعرف خالقه، وتلك النعمة، ويشكر خالقها، وهو على العكس منكرٌ له، ومخاصم لخالقه، والغرضُ منه وصفُ الإنسان بالإفراط في الوقاحة، والتمادي في الكفر والعصيان.

﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥﴾.

﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ﴾ وهي الأزواج الثمانية، من الإبل، والبقر، والضأن، والمعز ﴿خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ وهو ما يدفأ به من لباس معمول، من صوف، أو وبر، أو شعر، فيقي من البرد ﴿وَمَنَٰفِعُ﴾ هي دَرُّها، وركوبها، وحملُها، والحراثة بها، وغير ذلك، وإنما عبر عنها بالمنافع بها ليتناول الكل ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي ما يؤكل منها من اللحوم، والشحوم، والألبان.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦﴾.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ مع ما فُصِّل من أنواع المنافع ﴿جَمَالٌ﴾ أي زينة في أعين الناس، ووجاهة عندهم ﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾ تردّونها من مراعيها ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ تخرجونها بالغداة من حظائرها إلى مسارحها[1]، وتعيين الوقتين

(١) قدَّم الإراحة على السرح، مع أنها مؤخرة، لأن الأنعام وقت الإراحة، أجمل وأحسن من سرحها، لأنها تجيء مالئة البطون، حافلة الضروع.

لأن ما يدور عليه أمر الجمال، من تزيين الأفنية والأكناف بها وبتجاوب ثغائها ورغائها، إنما هو عند ورودها وصدورها.

﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾.

﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ جمع ثِقَل، وهو متاعُ المسافر، مثل سبب وأسباب ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ﴾ أي عام لكل بلد سحيق ﴿لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ﴾ واصلين إليه بأنفسكم لولا الإبل ﴿إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾الشقُّ: المشقة، أي لم تصلوا إليه إلا بمشقة عظيمة ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ولذلك أسبغ عليكم هذه النعم الجليلة، ويسَّر لكم الأمور الشاقة.

﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾.

﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ﴾ الخيل اسم جنس للفرس، لا واحد له من لفظه، أي خلق الخيلَ، والبغالَ، والحمير ﴿لِتَرْكَبُوهَا﴾ تعليل بمعظم منافعها، وإلا فالانتفاع بها بالحمل أيضاً، مما لا ريب في تحققه ﴿وَزِينَةً﴾ أي وهي كذلك زينة وجمال، واستدل بعض العلماء بهذه الآية على حرمة أكل لحم الخيل، وعلل ذلك بأنها خُلقت للركوب والزينة، وقال البغوي: ليس المراد من الآية بيان التحليل والتحريم، بل المراد منها تعديد النعمة، والتنبيه على كمال قدرته تعالى ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من أصناف خلائقه مما لا تعلمون كنهه وكيفية خلقه[1].

(١) ظهرت في هذه الأزمان، وسائل للحمل والركوب كالسيارات والقاطرات، والطائرات النفاثة وغيرها من الآلات الحديثة المخترعة، وكلها من تعليم الله عزَّ وجل للإنسان، =

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾﴾.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ القَصْدُ: مصدر بمعنى الفاعل، يقال: سبيلٌ قصدٌ أي مستقيم أي، حقٌّ عليه سبحانه وتعالى، بموجب رحمته ووعده، بيان الطريق المستقيم، الموصل لمن يسلكه إلى الحق الذي هو التوحيد، بنصب الأدلة، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب لدعوة الناس إليه، أي عليه تعالى تقويمها وتعديلها بحيث يصل سالكها إلى الحق. «**مسألة الوجوب على الله عزَّ وجلَّ**» لا يجب عليه سبحانه شيء بحكم غيره، عند أهل السُنَّة، إذ لا سلطان فوق سلطانه، فيوجب عليه ويجعله مسؤولاً، ومذهبُ السلف الصالح في هذه المسألة أنه لا يجب على الله تعالى إلا ما أوجبه وكتبه على نفسه، وما هو مقتضى صفاته كالعدل والرحمة ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ وقوله: ﴿كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ والأشاعرة ينقلون عن المعتزلة قولهم: بأنه يجب على الله كذا وكذا، فيدل نقلهم على أنهم يوجبون على الله تعالى إصلاح من يكون مكلفاً ومسؤولاً، وهذا حكم غريب وعجيب، مخالف لما عليه أهل السنة والجماعة، من أنه لا يجب على الله شيء، إلا ما أوجبه سبحانه تفضلاً منه وكرماً، ثم اعلم أنّ تقويم وتعديل السبيل، على الله عزَّ وجل، لكنْ لا بعدما كانت في نفسها منحرفة عنه، بل إبداعها ابتداءً على نهج قول القائل: سبحان من صغَّر

= فسبحان من أبدع بهذه العبارة القصيرة، ما يتمخض عنه العلم في المستقبل من أنواع الاختراعات الحديثة، ولو أن القرآن العظيم أخبرهم في ذلك الزمان، أنه ستكون هناك مراكب فضائية، وعربات لا تجرُّها الخيل، وسيطيرون بين السماء والأرض بالطائرات النفاثة، لسارعوا إلى تكذيب القرآن، ولهذا تدرج معهم بالأسلوب الحكيم مراعاةً لعقولهم وأفكارهم، وقد قال عليٌّ رضي الله عنه: «خاطبوا الناس على قدر عقولهم، أتحبُّون أن يُكذَّب اللهُ ورسولُه»؟.

البعوض، وكبَّر الفيل، وهذه هي الهداية المفسرة بالدلالة على ما يوصل إلى المطلوب، لا الهداية المستلزمة للاهتداء البتة، فإن ذلك ليس بحق على الله تعالى، لا بحسب ذاته، ولا بحسب رحمته، بل هو مخل بحكمته، حيث يستدعي تسوية المحسن والمسيء ﴿وَمِنْهَا﴾ أي بعض السبيل ﴿جَآئِرٌ﴾ أي مائل عن الحق لا يوصل سالكه إليه، وهو طريق الضلال، التي لا يكاد يحصى عددها، ومعنى الجور في اللغة: الميل عن الحق، جار عن الطريق: مال، وعن عبد الله بن المبارك: قصد السبيل: السُنَّةُ، والجائر: البدعة ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي لو شاء أن يهديكم إلى ما ذُكر من التوحيد هداية موصلة إليه البتة، مستلزمة لاهتدائكم أجمعين لفعل ذلك، ولكنْ لم يشأ لأن مشيئته تعالى تابعة للحكمة الداعية إليها، ولا حكمة في تلك المشيئة، لما أن الذي عليه يدور فلك التكليف، وإليه ينسحب الثواب والعقاب، إنما هو الاختيارُ الجزئي الذي عليه تترتب الأعمال، التي بها نِيْطَ الجزاء.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي مطراً ﴿لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ﴾ أي ما تشربونه ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾ أي ومنه يحصل شجر، والمراد به ما ينبت من الأرض، سواء كان له ساقٌ أو لا ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ ترعون، من سامت الماشية، وأسامها صاحبها: أرسلها لترعى العُشب.

﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾.

﴿يُنۢبِتُ لَكُم﴾ أي الله تعالى ﴿بِهِ﴾ بما أنزل من السماء ﴿ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ بيان للنعم الفائضة عليهم

من الأرض، وإيثار صيغة الاستقبال، للدلالة على التجدد والاستمرار، وأنها سنة جارية على مرِّ الدهور، ولم يقل «كلَّ الثمرات» لأن كلًّا لا يكون إلاّ في الجنة، وإنما أنبت في الأرض بعضها للتذكرة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي في إنزال الماء، وإنبات ما فصل ﴿لَآيَةً﴾ عظيمة دالة على تفرده تعالى بالألوهية، لاشتماله على كمال العلم، والقدرة، والحكمة ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فإن من تفكّر في أن الحبة والنواة، تقع في الأرض، وتصل إليها نداوة تنفذ فيها، فينشق أسفلها فيخرج منه عروق، تنبسط في أعماق الأرض، وينشق أعلاها ويخرج منه ساق فينمو، ويخرج منه الأوراق والأزهار والحبوب والثمار، مشتملة على أجسام مختلفة الأشكال، والألوان، والخواص، والنواة قابلةٌ لتوليد الأمثال مع اتحاد المواد، واستواء نسبة الطبائع السفلية، والتأثيرات العلوية، بالنسبة إلى الكل، علم أن من هذه أفعاله وآثاره، لا يمكن أن يشبهه شيء من صفات الكمال، فضلاً عن أن يشاركه أخسُّ الأشياء في أخص صفاته التي هي الألوهية، وحيث افتقر سلوك هذه الطريقة إلى ترتيب المقدمات ختم الآية الكريمة بالأمر بالتفكر ﴿لآيةً لِقوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ يتعاقبان خلفة، لمنامكم ومعاشكم، ولعقد الثمار ونضاجها ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ﴾ أي مسخّرةً لمصالحكم ومنافعكم بتسهيله تعالى وتيسيره ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي فيما ذكر من التسخير ﴿لَآيَٰتٍ﴾ باهرة ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ وحيث كانت هذه الآثار المتعدّدة ـ الدَّالةُ، بما فيها من عظيم القدرة، على الوحدانية ـ أظهرُ جميع الآيات، وعُقلت بمجرد العقل، قيل: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ وَمَا ذَرَأَ ﴾ أي وما خلق ﴿ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ من حيوانٍ ونباتٍ حال كونه ﴿ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ﴾ أي أصنافه، فإن اختلافها غالباً يكون باختلاف اللون، واختلاف المخلوقات مع كثرتها لا يشبه بعضه بعضاً من كل الوجوه فيه دليل على كمال قدرته تعالى ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ الذي ذكر من التسخيرات ﴿ لَءَايَةً ﴾ بينة الدلالة على أن من هذا شأنه واحد لا ندَّ له ولا ضدَّ ﴿ لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أي يتَّعظون فيعتبرون بذلك، ويستدلون على التوحيد، فإن ذلك غير محتاج إلا إلى التذكر.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ ﴾ أي جعله بحيث تتمكنون من الانتفاع به بالركوب، والغوص، وصيد الأسماك ﴿ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾ أي غضاً وهو السمك، ووصفُه بالطراوة، للإشعار بلطافته، والتنبيه على وجوب المسارعة إلى أكله، كيلا يتسارع إليه الفساد، وللإيذان بكمال قدرته تعالى، خَلَقه الله عذباً طرياً، في ماءٍ زعاف، حيث إنه حدث لا بحسب الطبيعة بل بقدرة الله تعالى وحكمته، أظهرَ الضدَّ من الضدِّ ﴿ وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً ﴾ كاللؤلؤ والمرجان ﴿ تَلْبَسُونَهَا ﴾ عبَّر في مقام الامتنان عن لبس نسائهم بلبسهم، لكون لبسهنَّ لأجلهم ﴿ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ ﴾ أي السفن ﴿ مَوَاخِرَ فِيهِ ﴾ أي جواري فيه، مقبلةً ومدبرة، ومعترضة، بريحٍ واحدة تشقه في سيرها، من المَخْر وهو شقُّ الماء ﴿ وَلِتَبْتَغُوا۟ ﴾ عطف على تستخرجوا أي ولتطلبوا ﴿ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ من سَعَة رزقه بركوبها للتجارة

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي تعرفون حقوق نعمه الجليلة، فتقومون بأداء شكرها، بالإيمان، والطاعة، ففي ركوب السفن قطعٌ لمسافةٍ طويلة، مع أحمال ثقيلة، في مدة قليلة، مع أنها طريق في طريق المهالك.

﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ﴾ أي جبالاً ثوابت ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ كراهة أن تميل بكم وتضطرب، أو لئلا تميد بكم، فإن الأرض قبل أن تُخلق فيها الجبال، كانت كرةً خفيفة، وكان من حقها أن تتحرك بأدنى سبب محرّك، فلما خُلقت الجبال تفاوتت حافاتها، وتوجَّهت الجبالُ بثقلها فصارت كالأوتاد، والله أعلم ﴿وَأَنْهَٰرًا﴾ أي وجعل فيها أنهاراً ﴿وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ بها إلى مقاصدكم.

﴿وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿وَعَلَٰمَٰتٍ﴾ أي معالم يستدل بها المسافرون بالنهار، من جبل، وسهلٍ، ومياهٍ، وريح ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي يهتدون بها بالليل في البراري والبحار، حيث لا علامة غيرها، والمراد بالنجم الجنس، والعرب مشهورون بالاهتداء بالنجوم، ومن الفقهاء من يجعل ذلك، دليلاً على أن المسافر إذا عميت عليه القبلة، فعليه أن يستدلَّ بالنجوم وبالعلامات.

﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿أَفَمَن يَخْلُقُ﴾ هذه المصنوعات العظيمة ﴿كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ شيئاً أصلاً، وهو تبكيتٌ للكفرة، وتنبيه على كمال قبح ما فعلوه، والمراد بمن لا يخلق الأوثان والأصنام، وكل ما هذا شأنه ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي ألا

تلاحظون فلا تتذكرون ذلك، فإنه لوضوحه لا يفتقر إلى شيء سوى التذكر.

﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ تذكير إجمالي لنعمه تعالى بعد تعداد طائفة منها ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ ﴾ حيث يستر ما فرَّطتم من كفرانها، ولا يعاجلكم بالعقوبة على ذلك ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ حيث يفيضها عليكم مع استحقاقكم للقطع.

﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ ﴾ أي ما تضمرونه من العقائد والأعمال مما كانوا يمكرون ﴿ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ أي تظهرونه منهما من الإيذاء وفيه من الوعيد ما فيه.

﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ ﴾ أي والآلهة الذين يعبدهم الكفار ﴿ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ سبحانه ﴿ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا ﴾ من الأشياء أصلاً، أي ليس من شأنهم ذلك ﴿ وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ أي شأنهم ومقتضى ذاتهم المخلوقية، فهم مخلوقون صنعهم البشر بأيديهم، فكيف يكونون آلهة تعبد من دون الله؟ ثم زاد تعالى في التوضيح والبيان فقال:

﴿ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ أَمْوَٰتٌ ﴾ أي ميتة لا حياة فيها، ﴿ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ ﴾ أي لا يعتريها الحياة أصلاً وقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي تلك الآلهة ﴿ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ أي

عبدتهم، وهذا على طريق التهكم بهم، لأن شعور الجمادات بديهي الاستحالة.

﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ لا يشاركه شيء في الألوهية، فهو واحد أحد، فرد صمد ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ وأحوالها التي من جملتها البعث ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾ للوحدانية وللآيات الدالة عليها ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ عن الاعتراف بها، والكفر بالآخرة يؤدي إلى قصر النظر على العاجل، والإعراض عن الدلائل السمعية والعقلية.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿لَاجَرَمَ﴾ حقّاً ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ﴾ أي يعلم سرَّهم وجهرهم، لا تخفى عليه خافية ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ تعليل لما تضمنه الكلام من الوعيد، أي لا يحب جنس المستكبرين، فكيف بمن استكبر عن التوحيد والإيمان؟ عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبْرٍ، فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حَسَناً، ونعلُه حسناً!! فقال ﷺ: ليس ذاك، إن الله جميلٌ يحبُّ الجمال، الكِبْرُ بَطر الحقِّ، وغمْطُ الناس»[1].

(١) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه رقم ٩١ في الإيمان، ومعنى «بطر الحق» أي دفعه وعدم قبوله، و«غمط الناس» أي احتقارهم وازدراؤهم.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ لأولئك المنكرين المستكبرين ﴿ مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ ﴾ أيْ أيَّ شيءٍ أنزل ربكم؟ أو ما الذي أنزله؟ ﴿ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي قالوا على سبيل الاستهزاء: ما تدَّعون نزوله أحاديث الأولين وأباطيلهم، وليس من الإنزال في شيء، وهؤلاء القائلون هم المقتسمون، الذين اقتسموا مداخل مكة ينفِّرون الناسَ عن رسول الله ﷺ عند سؤال وفود الحجاج عما نزل عليه ﷺ، وعن نبوَّته ورسالته.

﴿ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ .

﴿ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ ﴾ أي قالوا ما قالوا، ليحملوا ذنوبهم الخاصة بهم، وهي أوزار إضلالهم ﴿ كَامِلَةً ﴾ لم يكفَّر منها شيء، بنكبةٍ أصابتهم في الدنيا، كما تُكفَّر أوزار المسلمين، وهذا يدلُّ على أنه سبحانه، قد يسقط بعض العقاب عن المؤمنين ﴿ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ ﴾ أي في ذلك اليوم الرهيب ﴿ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم ﴾ أي ومن بعض أوزار من ضلَّ بإضلالهم، وهو وزرُ الإضلال، لأنهما شريكان في الإجرام ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أي يضلونهم غير عالمين بأن ما يدعون إليه طريق الضلال، أو يضلون من لا يعلم أنه ضلال، وفائدة التقييد بها الإشعار بأن مكرهم لا يروج عند ذي لب، وإنما يتبعهم الأغبياء والجهلة، والتنبيه على أن جهلهم ذلك لا يكون عذراً، إذ كان يجب عليهم أن يبحثوا ويميّزوا بين المحقِّ والمبطل ﴿ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ أي بئس شيئاً يحملونه على ظهورهم يوم القيامة، والوزرُ: الإثمُ، جمعه أوزار، مثل حمل وأحمال.

﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ وعيد لهم برجوع مكرهم إلى أنفسهم، كدأب من قبلهم من الأمم الخالية، الذين أصابهم ما أصابهم من العذاب العاجل، وهو عام في جميع المبطلين ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ﴾ أي قلع الله بنيانهم من قواعده وأسسه ﴿بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ وهي الأعمدة التي تعمده فضعضعت أركانه ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ أي سقط عليهم سقف بنيانهم بعد تهدم القواعد، شُبهت حال أولئك الماكرين، في تدبيرهم المكائد التي أرادوا بها الإيقاع برسل الله، وفي إبطاله تعالى تلك المكائد، بحال قوم بنوا بنياناً، وعمَّدوه بالأساطين، فأتى الخراب للبنيان من قِبَل أساطينه، بأن ضُعضعت أركانه، فسقط عليهم السقف فهلكوا[1] ﴿وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ أي الهلاك والدمار ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانه ولا يدرون، ولا يخطر على بالهم، فالمعنى: إن هؤلاء الماكرين والقائلين للقرآن العظيم أساطير الأولين، سيأتيهم من العذاب العاجل وهم لا يحتسبون.

﴿ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

(١) الآية مشهد كامل للهلاك والدمار، الذي أصاب أولئك المجرمين، وفيه سخرية بمكر الماكرين، فقد مثَّل تعالى لما دبَّره أولئك الأشقياء، بحال قوم بنوا بنياناً شديد الدعائم، فخرَّب الله عليهم أصوله وأساسه، فذهب الأساس، وهدمت القواعد، وسقط عليهم البنيان، فهلكوا وبادوا، وهو تمثيل بادي الروعة فائق الجمال.

﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ عطف على مقدّر، أي هذا عذاب هؤلاء وجزاؤهم في الدنيا، ويوم القيامة يخزيهم أي يذلهم بعذاب الخزي على رؤوس الأشهاد ﴿وَيَقُولُ﴾ الله تعالى لهم تفضيحاً ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ أضافهم إليه سبحانه، حكايةً لإضافتهم الكاذبة، ففيه توبيخٌ مع الاستهزاء بهم ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾ ؟ أي تخاصمون الأنبياء في شأنهم، حين بيَّنوا لكم بطلانها، والمراد بالاستفهام استحضارها للشفاعة والمدافعة، على طريق الاستهزاء والتبكيت ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ من أهل الموقف، وهم الدعاة الصادقون، والمؤمنون الذين أُوتوا علماً بدلائل التوحيد، وكانوا يدعونهم في الدنيا إلى التوحيد، فيجادلونهم ويتكبرون عليهم يقولون توبيخاً لهم، وتحقيقاً لما أوعدوهم به: ﴿إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ﴾ أي الفضيحة والذل ﴿وَٱلسُّوٓءَ﴾ أي العذاب الشديد ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ بالله تعالى، وبآياته ورسله، وكتبه والبعث.

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي على الكافرين المستمرين على الكفر ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي حال كونهم ظالمين لأنفسهم، وأيُّ ظلم أكبرُ من هذا الظلم حيث عرَّضوها للعذاب المخلَّد، وبدلوا فطرة الله تبديلاً ﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ﴾ أي استسلموا وانقادوا، أي فيسالمون حين يعاينون الموت ويتركون المشاقة، وينزلون عمَّا كانوا عليه في الدنيا من الكبر، وقالوا: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ﴾ في الدنيا ﴿مِن سُوٓءٍ﴾ من شرك، قالوه منكرين لصدوره عنهم، كقولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[1] وإنما عبروا عنه بالسوء، اعترافاً بكونه سيئاً ﴿بَلَىٰٓ﴾ ردٌّ عليهم من قِبَل أولي العلم، وإثبات لما نفوه، أي

(١) سورة الأنعام، آية: ٢٣.

بلى كنتم تعملون ما تعملون من الجرائم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ فهو يجازيكم عليه، وهذا أوانه، فلا يفيد إنكاركم وكذبكم على أنفسكم، ثم صرَّح بذكر العقاب فقال:

﴿فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ﴾ أي ادخلوا جهنم ماكثين فيها أبداً، وذوقوا أصناف عذابها، وهذا يدل على تفاوت منازلهم في العقاب ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي عن التوحيد كما قال الله تعالى: ﴿قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾[1] وذكرهم بعنوان التكبر، للإشعار بسبب خلودهم فيها، والمعنى: بئست جهنم منزلاً ومقاماً للمتكبرين.

﴿۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْۚ قَالُواْ خَيْرًاۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۚ وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾ أي المؤمنين، وصفوا بالتقوى إشعاراً بأن ما صدر عنهم من الجواب ناشىء عن التقوى ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْۚ قَالُواْ خَيْرًاۗ﴾؟ أي أنزل خيراً، وهو هذا الكلام الجامع، قالوه ترغيباً للسائل وهو جواب مطابق للسؤال سبكاً، وللواقع في نفس الأمر مضموناً، وأما الكفرة ـ خذلهم الله ـ فقد غيّروا الجواب عن نهج الحق، روي أن أحياء العرب، كانوا يبعثون أيام الموسم من يأتيهم بخبر النبي ﷺ، فإذا جاء الوافد كفه الكفار وأمروه بالانصراف، وقالوا إن لم تلقه كان خيراً لك، فيقول: أنا شرُّ وفدٍ إن رجعتُ إلى قومي دون أن أستطلع أمر محمد ﷺ فيلقى أصحاب النبي ﷺ فيخبرونه بحقيقة الحال فهم الذين ﴿قَالُواْ خَيْرًاۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ﴾ أي لهؤلاء المحسنين الذين أحسنوا أعمالهم، أو فعلوا الإحسان

(١) سورة النحل، آية: ٢٢.

﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ أي مثوبة حسنة مكافأة فيها ﴿وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ﴾ أي مثوبتهم فيها ﴿خَيْرٌ﴾ مما أوتوا في الدنيا من المثوبة ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي دار الآخرة، حُذف لدلالة ما سبق عليه، وهو كلام مبتدأ مدح الله به المتقين، ووعدهم بذلك ثوابي الدنيا والآخرة.

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ أي لهم جنات عدن أي إقامة ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ أي يدخلونها للإقامة لا يخرجون منها أبداً ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا﴾ في تلك الجنات ﴿مَا يَشَآءُونَ﴾ من أنواع المشتهيات وهذا كقوله تعالى: ﴿وفيهَا مَا تَشْتَهِي الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ﴾[1] ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الجزاء الأوفى ﴿يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي كل من يتقي من الشرك أو المعاصي، ويدخل فيه المذكورون دخولاً أولياً، ويكون فيه بعث لغيرهم على التقوى.

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي تقبض أرواحهم ملائكة الرحمة ﴿طَيِّبِينَ﴾ أي طيبة نفوسهم بلقاء الله، طاهرين من دنس الظلم لأنفسهم، طيبي النفوس ببشارة الملائكة إياهم بالجنة ﴿يَقُولُونَ﴾ أي قائلين لهم ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾ قال القرظي: إذا استدعيت نفسُ المؤمن، جاءه ملك الموت، فقال: السلام عليك يا وليَّ الله، اللهُ تعالى يقرأ عليك السلام، وبشَّره بالجنة ﴿ٱدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ﴾ أي جنات عدن، والمراد دخولهم في وقته بعد البعث والحساب، فإن ذلك بشارة عظيمة ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي بسبب

---

(١) سورة الزخرف، آية: ٧١.

ثباتكم على التقوى والطاعة، فإن قلت: كيف الجمع بين هذا وبين قوله ﷺ: «لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله» المرويُّ في الصحيحين، قال النووي: لا تعارض بين الآية والحديث، لأن معنى الآية أن دخول الجنة بسبب الأعمال، والتوفيق للإخلاص وقبوله بفضل من الله تعالى.

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ ﴾ أي ما ينتظر كفار مكة ﴿ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ أي ملائكة العذاب لقبض أرواحهم الخبيثة، والتعبير بانتظاره تصوير لهجومه عليهم بمخاوفه، فكأنهم يترصّدون وروده ﴿ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ ﴾ أي العذاب الدنيوي لا القيامة ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي مثل فعل هؤلاء، من الشرك والظلم، والتكذيب والاستهزاء ﴿ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ ﴾ من الأمم ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ بتعذيبهم وإهلاكهم ﴿ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ ﴾ أي بما كانوا مستمرين عليه من القبائح الموجبة لذلك ﴿ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أي ولكن كانوا هم الظالمين لأنفسهم، لأن عاقبة ظلمهم راجعٌ إليهم.

﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ ﴾ أي أصابهم عقوبات أعمالهم السيئة ﴿ وَحَاقَ بِهِم ﴾ أي أحاط بهم، والحيقُ لا يستعمل إلا في الشرّ ﴿وَلاَ يَحِيقُ المَكْرُ السَّيِّءُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ﴾ ﴿ مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ من العذاب.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ أي كفرة قريش، وهو بيان لفن آخر من كفرهم والعدول عن الإضمار لتقريعهم ودمغهم بالشرك ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ أي لو شاء عدم عبادتنا لشيء غيره، لما عبدنا ذلك ﴿نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ الذين نقتدي بهم في ديننا ﴿وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ من السوائب والبحائر وغيرهما، وإنما قالوا ذلك تكذيباً للرسول ﷺ، وطعناً في الرسالة، متمسكين بأن ما شاء الله يجب، وما لم يشأ يمتنع، وحيث عبدنا غيره فهو واقع بمشيئته، ولو شاء لمنعنا من ذلك، وهذا عين ما حكاه الله تعالى في سورة الأنعام في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ الآية فأجيب بقوله عزَّ وجلَّ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك القول الشنيع ﴿فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم، أي أشركوا بالله، وحرموا ما أحلَّه، وردوا رسله وجادلوهم بالباطل، حين نبهوهم على الخطأ ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ﴾ الذين يبلغون رسالات الله ﴿إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي ليست وظيفتهم إلا تبليغ الرسالة، وأما إلجاؤهم إلى الإيمان، فليس ذلك من وظيفتهم، ولا من الحكمة التي يدور أمر التكليف عليها، والفاء للتعليل كأنه قيل: كذلك فعل أسلافهم وذلك باطل، فإن الرسل ليس شأنهم إلاَّ تبليغ أمر الله تعالى ونواهيه، لا تحقيق مضمونهما على الناس قسراً وإلجاءً.

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ أي بعثنا في كل أمة من الأمم الخالية رسولاً خاصاً بهم، كما بعثنا فيكم الرسول ﷺ ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي بأن اعبدوا الله وحده ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ كل ما يدعو إلى الضلالة ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ﴾ إلى الحق الذي هو توحيده وعبادته ﴿وَمِنْهُم مَّنْ

﴿حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ أي وجبت وثبتت إلى حين الموت لعناده وإصراره عليها، وعدم صرف قدرته إلى تحصيل الحق ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يا معشر الكفرة أي امشوا في أكنافها ﴿فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ من عاد وثمود، ممن حقت عليهم الضلالة والعذاب، لعلكم تعتبرون حين تشاهدون آثار الهلاك.

﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿إِن تَحْرِصْ﴾ خطاب للرسول ﷺ ﴿عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ﴾ أي إن تطلب هدايتهم بجهدك ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾ أي فاعلم أنه تعالى لا يخلق الهداية جبراً وقسراً، فيمن أصرَّ على الضلالة، بسوء اختياره، والمراد به كفرة قريش أي إن تحرص على هداهم فلست بقادر على ذلك، لأن الله لا يهدي من يضله، وهؤلاء من جملتهم ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ ينصرهم في الهداية، أو يدفع العذاب.

﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ شروع في بيان فن آخر من أباطيلهم، وهو إنكارهم البعث ﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ جاهدين في أيمانهم ﴿لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ واستدلوا بأن الشيء إذا فني وصار عدماً محضاً، لا يعود بعينه، بل العائد يكون شيئاً آخر، فردَّ الله تعالى بقوله الحق ﴿بَلَىٰ﴾ يبعثهم ﴿وَعْدًا﴾ أي وعد بذلك وعداً ﴿عَلَيْهِ﴾ أي وعداً ثابتاً عليه إنجازه، لامتناع الخُلْف في وعده ﴿حَقًّا﴾ صفة أخرى له ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لجهلهم بشؤون الله عز وجل، من العلم والقدرة والحكمة، وغيرها من صفاته تعالى، وعدم وقوفهم على سر التكوين.

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ متعلق بما دلَّ عليه «بلى» من البعث أي يبعثهم ليبين لهم بذلك ﴿ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ من الحق المنتظم لجميع ما خالفوه، ممَّا جاء به الشرع المبين ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أي وليعلم الجاحدون بالله، والمنكرون للبعث ﴿أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ﴾ في كل ما يقولونه، لا سيما في قولهم ﴿لاَ يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ وهو إشارة إلى السبب الداعي إلى البعث، المقتضي له، من حيث الحكمة، وهو التمييز بين المطيع والعاصي، والمحق والمبطل.

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا﴾ استئناف لبيان كيفية التكوين، أيَّ لا يحتاج الأمر إلى كبير جهد وعناء، فإنا نقول ﴿لِشَىْءٍ﴾ أيَّ شيءٍ كان عزَّ أو هان ﴿إِذَآ أَرَدْنَٰهُ﴾ أي وقت إرادتنا لوجوده ﴿أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ والمعنى: أن إيجاد كل مقدَّر على الله تعالى بهذه السهولة، فكيف يمتنع عليه البعثُ، الذي هو بعضٌ منها؟.

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ﴾ أي في دين الله ورضاه، ولوجهه سبحانه ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ الذين ظلمهم كفرة مكة وأخرجوهم من ديارهم، فهاجروا إلى الحبشة، ثم بوَّأهم الله تعالى المدينة المنورة حسبما وعد بقوله سبحانه ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ تبوئة حسنة، أي نسكنهم مسكناً حسناً خيراً مما فقدوه، قال ابن عباس: بوأهم الله المدينة المنورة، فجعلها لهم دار

هجرة.. والآية تدلُّ على فضل المهاجرين، إلا أنها إذا لم تكن خالصة لله عزَّ وجلَّ لم يكن لها موقع، وكانت بمنزلة الانتقال من بلد إلى آخر ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ﴾ أي أجر أعمالهم المذكورة في الآخرة ﴿أَكْبَرُ﴾ مما يعجل لهم في الدنيا، وعن عمر رضي الله عنه أنه كان إذا أعطى رجلاً من المهاجرين عطاءً، قال له: خذ بارك الله لك فيه، هذا ما وعدك الله تعالى في الدنيا، وما ادَّخر في الآخرة أفضل، ثم قرأ هذه الآية ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ الضمير للكفار، أي لو علموا أن الله تعالى يجمع لهؤلاء المهاجرين خير الدارين لوافقوهم في الدين.

﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ على الشدائد، من أذية الكفار، ومفارقة الأهل والوطن وغير ذلك ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ خاصة ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ يفوّضون الأمر لله، ويرضون بما أصابهم في الدين، وصيغة الاستقبال للدلالة على دوام التوكل.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ﴾ وهذا ردٌّ على كفرة قريش حين قالوا: أَلله أجلُّ من أن يكون له رسول من البشر، فهلَّا بعث إلينا ملكاً!! فنزلت الآية أي جرت السُنَّة الإلَهية حسبما اقتضته الحكمة، بأن لا يبعث للدعوة العامة إلا بشراً، يوحي إليهم بواسطة المَلَك، أوامره ونواهيه، ليبلّغوها للناس، ولمَّا كان المقصود من الخطاب للرسول ﷺ، تنبيه الكفار على مضمونه، صَرَفَ الخطابَ إليهم فقيل: فإن شككتم فيه ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ أي أهل الكتاب وهم العلماء بالتوراة والإنجيل، ليعلموكم ذلك ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ وإنما أُمروا بذلك، لأنهم يعتقدون أن

أهل الكتابِ أهل العلم والذكر، وفيه دلالة على أنه تعالى لم يرسل للدعوة العامة، مَلكاً، ولا امرأةً ولا صبيًّا، وقوله تعالى: ﴿جاعِلِ المَلَائِكَةِ رُسلاً﴾ معناه رسلاً إلى الأنبياء، وفيه إشارة إلى وجوب الرجوع إلى العلماء، فيما لا يعلم من الأمور الدينية.

﴿ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ ﴾ الباء متعلقة بمقدَّر، وقع جواباً عن سؤال كأنه قال: بِمَ أُرسلوا؟ فقيل: أُرسلوا ﴿بالبيِّنات والزُّبُر﴾ أي بالمعجزات والكُتب ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ ﴾ أي القرآن، سُمّي به لأنه تذكيرٌ وتنبيهٌ للغافلين ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ كافة ويدخل فيه أهل مكة ﴿مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ في ذلك الذكر، من الأحكام والشرائع وغير ذلك، بياناً شافياً كما يُنبىء عنه صيغة التفعيل «نُزِّلَ» ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي إرادة أن يتأملوا فينتبهوا للحقائق، وما فيه من العبر، ويحترزوا عما يؤدي إلى مثل ما أصاب الأولين.

﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ هم كفرةُ قريش، الذين مكروا برسول الله ﷺ، ورَاموا صدَّ أصحابه عن الدخول في الإسلام ﴿أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾ كما فعل بقارون ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانه أي في حالة غفلتهم.

﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ ﴾ أي يهلكهم في أثناء أسفارهم ومتاجرتهم ﴿فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي لا يعجزون الله على أي حال كانوا.

﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ ﴾ .

﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ ﴾ أي على مخافةٍ وحذر من الهلاك، بأن يهلك قوماً قبلهم، فيتخوفوا، فيأخذهم العذاب وهم متخوفون مترقبون لنزوله، فإنه يكون أشد على النفس، وقيل: التخوف هو التنقص، والمراد منه ما يقع في أطراف بلادهم كما قال الله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتي الأرض نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾؟[1] والمراد بذكر الأحوال الثلاثة، بيان قدرة الله سبحانه على إهلاكهم، بأي وجه كان، لا الحصر فيها ﴿ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ حيث لا يعاجلكم بالعقوبة مع استحقاقكم لها.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ استفهام إنكاري، أي ألم ينظروا ولم يروا ﴿ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾ أي من كل شيء له ظل كالجبل، والشجر، والبناء ﴿ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ ﴾ أي يرجع شيئاً فشيئاً حسبما تقتضيه إرادة الخالق تعالى، فإن التفيؤ مطاوع الإفاءة ﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ ﴾ أي ألم يروا الأشياء التي لها ظلال، متفيئة عن أيمانها وشمائلها، أي عن جانبي كل منها ﴿ سُجَّدًا لِّلَّهِ ﴾ والمراد بسجودها: انقيادها لإرادته تعالى في الامتداد والتقلص وغيرهما، وكان الحسن رحمه الله يقول: ظلُّك يا بن آدم يسجد لربك، وأما أنت فلا تسجد؟ ﴿ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴾ أي صاغرون، منقادون لله عزَّ وجلَّ، دخر الشخص دخوراً ذلَّ وهان، والمعنى: ترجع الظلال من جانب إلى جانب، بارتفاع الشمس وانحدارها، تتحرك على مدار معين، بتقدير العزيز العليم، منقادة لما قُدِّر لها، ملتصقة بها على هيئة الساجد الخاشع المنيب، منقادة لحكمه تعالى.

---

(١) سورة الرعد، آية: ٤١.

إن الله تعالى قد أعطى لكل شيء من المخلوقات، سمعاً، وبصراً، وفهماً، ولساناً، به يسمع كلام الحق، ويبصر شواهد الحق، ويفهم إشارة الحق، فكل شيء يسبح الله بذلك اللسان، ويسجد له بذلك الطوع، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[1] فلا يبعد أن يسجد لله كل شيء، وإن لم نفقه سجوده.

ثم بعدما بيَّن سجود الظلال، شرع في بيان سجود المخلوقات فقال:

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ ﴾ أي له تعالى وحده، يخضع وينقاد، لا لشيء غيره ﴿ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ قاطبة ﴿ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ كائناً ما كان ﴿ مِن دَآبَّةٍ ﴾ أي مما يدبّ فيهما من مخلوقات، ملائكة أو بشراً، لأن الدبيب هو الحركة الجسمانية، سواء كان في الأرض أو في السماء ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ أي بما فيهم الملائكة الأبرار الأطهار ﴿ وَهُمْ ﴾ أي الملائكة مع علو شأنهم ﴿ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ عن السجود له عزَّ وجلَّ.

﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم ﴾ أي يخافون ربهم مالك أمرهم ﴿ مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ يخافونه خوف هيبةٍ وإجلال، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ القاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ يخافونه أن يرسل عليهم عذاباً من فوقهم ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ به من الطاعات، وبعدما بين أن جميع الموجودات يخضعون الخضوع التام الكامل لله عزَّ وجلَّ، أردف ذلك بحكاية نهيه سبحانه للمكلفين عن الإشراك فقال سبحانه:

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٤٤.

﴿ ۞وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾ ﴾ .

﴿ ۞وَقَالَ ٱللَّهُ ﴾ تعالى لجميع المكلفين ﴿ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ ﴾ أي لا تعبدوا إلهين، فإن الإله الحق لا يتعدد، وإنما ذكر العدد، مع أن صيغة التثنية مغنية عن ذلك، للدلالة على أن مساق النهي هي الاثنينية وأنها منافية للألوهية، كما أن وصف الإله بالوحدة، للدلالة على أن المقصود، إثبات الوحدانية في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ ﴾ والنهي عنه هو الإشراك به تعالى، أَلاَ تَرى أنك لو قلت: إنما هو إله ولم تؤكّده، خُيِّل إليك أنك تثبت الإلهية لا الوحدانية، فمن أجل ذلك جاء لفظ ﴿واحد﴾ ﴿ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾ التفات من الغَيْبة إلى التكلم، لتربية المهابة، وإلقاء الرهبة في القلوب ولذلك قُدم المفعول، وكُرر الفعل، أي إن كنتم راهبين شيئاً فإياي فارهبون أي فخافون دون سواي.

﴿ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ .

﴿ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ خَلْقاً وملكاً، تعليل لانقياد ما فيهما له سبحانه خاصة ﴿ وَلَهُ ٱلدِّينُ ﴾ أي الطاعة والانقياد ﴿ وَاصِبًاۚ ﴾ واجباً، ثابتاً لا زوال له، فهو الإله الحقُّ، الحقيق بأن يُرهب ﴿ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴾؟ الهمزة للإنكار، أي كيف تتقون وتخافون غيره، ولا نفع ولا ضر إلاَّ بيده؟.

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ .

﴿ وَمَا بِكُم ﴾ أيْ أيَّ شيءٍ نلتموه ممَّا يلابسكم ويصاحبكم ﴿ مِّن نِّعۡمَةٖ ﴾ أيَّ نعمةٍ كانت ﴿ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ﴾ فهي من الله تعالى، وهو المتفضل بها على عباده ﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ ﴾ أي إذا أصابتكم المكاره، والشدة والأمراض ونحوها ﴿ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴾ أي تضرعون في كشفه، ليس لكم

غيره تعالى، والجؤار: رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة، أي إليه وحده تجأرون، لعلمهم بأنه لا مفزع للخلق إلاَّ هو، فكأنه تعالى قال لهم: فأين أنتم في حال السلامة؟.

﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ﴾ أي إذا أزال الشدة والضر، والبلاء عنكم ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ الخطاب للمشركين، و «من» للبيان كأنه قيل: إذا فريق منكم كافر، وهم أنتم، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نَجَّاهُمْ إِلَى البَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ والتعرض لوصف الربوبية، للإيذان بكمال قبح ما ارتكبوه، من الإشراك والكفران بالمنعم المتفضل جلَّ وعلا.

﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ﴾ من نعمة الكشف عنهم، كأنهم جعلوا غرضهم في الشرك كفران النعمة، وإنكار كونها من الله تعالى، لأنهم يضيفون كشف الضر إلى الأسباب، ولا يضيفونها إلى الله تعالى، ألا ترى أن العليل إذا اشتد وجعه، تضرَّع إلى الله تعالى، فإذا زال أحال زواله إلى الدواء، وهذه الحالة تجري مجرى الصفة اللازمة لجوهر نفس الإنسان ﴿فَتَمَتَّعُوا۟ ۖ﴾ أمر تهديد أي فعيشوا فيما أنتم فيه، إلى المدة التي ضرب الله عز وجل لكم ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عاقبة أمركم وكفركم.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿وَيَجْعَلُونَ﴾ هذا تعداد لجناياتهم الشنيعة ﴿لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لما لا يعلمون حقيقته، وقدره الخسيس من الجمادات، التي يتخذونها شركاء لله

تعالى، جهالة منهم وسفاهة، ويزعمون أنها تنفعهم وتشفع لهم عند الله ﴿نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ من الزرع والأنعام، تقرباً إلى الأصنام وهي جمادات ﴿تَاللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ﴾ سؤال توبيخ وتقريع، أقسم تعالى بنفسه على نفسه ﴿عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ في الدنيا بأنها آلهة، وتختلقون الكذب على الله، والغرض من الآية التوبيخ لهم على عبادة الأوثان، وهي جمادات لا تضر ولا تنفع.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ﴾ هم خزاعة، وكنانة، الذين كانوا يقولون: الملائكةُ بنات الله، وإنما أطلقوا لفظ البنات على الملائكة، لاستتارهم عن العيون كالنساء ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيهٌ وتقديسٌ له عزَّ وجل، عن مضمون قولهم الفاجر، وتعجيبٌ من جراءتهم على التفوه بمثل تلك العظيمة ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ من البنين!! وهو كقوله تعالى: ﴿أم له البنات ولكم البنون﴾؟ ثم ذكر تعالى أن الواحد منهم لا يرضى بالبنت لنفسه، فكيف ينسبها لله عز وجل؟.

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ﴾ أي أُخبِر بولادتها ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ﴾ أي صار دوام النهار ﴿مُسْوَدًّا﴾ من الكآبة والحياء من الناس، والاسوداد كناية عن الاغتمام والتشويش، لأن الإنسان إذا قوي فرحه انشرح صدره، وانبسط روحه، ووصل إلى الأطراف، ولا سيما إلى الوجه، فتلألأ الوجه، وإذا اشتد غم الإنسان، احتقن الروح ولم يبق منه أثر قوي في وجهه، فيصفرُّ ويسودّ وجهه ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ممتلىءٌ حنقاً وغيظاً من المرأة.

﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿يَتَوَارَىٰ﴾ أي يستخفي ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾ أي خوفاً من العار الذي يلحقه بسبب البنت، والتعبير عنها بـ «ما» لإسقاطها عن درجة العقلاء، ثم تردَّد في أمره، محدِّثاً نفسه في شأنه ﴿أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ﴾ أي ذلٍّ وهوان ﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ﴾ أي يخفيه ﴿فِى ٱلتُّرَابِ﴾ بالوأد، دسَّه في التراب دسَّاً: دفنه فيه، وكلُّ شيء أخفيتَه فقد دسسته، ومنه يقال للجاسوس: دسيس القوم.

قال أهل التفسير: إن مُضَر، وخُزاعة، وتميماً، كانوا يدفنون البنات أحياء، والسبب في ذلك، إمَّا خوف الفقر، وكثرة العيال، أو الحميَّة، فيخافون عليهن من الأسر، ونحوها، وكانوا في الجاهلية إذا قربت ولادة زوجة أحدهم، توارى من القوم، إلى أن يعلم ما يولد له، فإن كان ذكراً، ابتهج وسُرَّ بذلك، وإن كانت أنثى، حزن ولم يظهر أمام الناس أيَّاماً، حتى يفكِّر ما يصنع بها، فإذا أراد أن يستحييها تركها، حتى إذا كبرت ألبسها جبة من صوف أو شعر، وجعلها ترعى الإبل أو الغنم في البادية، وإذا أراد أن يقتلها، قال لأمها: زيِّنيها حتى أذهبَ بها إلى أحمائها، ويكون قد حفر لها حفرة في الصحراء، فإذا بلغ بها تلك الحفرة، دفعها من خلفها في تلك البئر، ثم يهيل التراب على رأسها، وقيل: إنهم كانوا مختلفين في قتل البنات، فمنهم من يرميها من شاهق جبل، ومنهم من يغرقها، ومنهم من يذبحها ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ حيث يجعلون ما هذا شأنه عندهم، من الهُونِ، والازدراء، والحقارة، لله المتعال عن الصاحبة والولد، وقيل معناه: ألا ساء ما يحكمون في وأد البنات.

﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ ممن ذكرت قبائحهم ﴿مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾ أي صفة السوء، الذي هو كالمثل في القبح، وهي إيثار الذكور، ووأد البنات لدفع

العار وخشية الإملاق ﴿وَلِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ وهو الوجود الذاتي، والغنى المطلق، والجودُ الواسع، والنزاهةُ عن صفات المخلوقين، فإن قيل: كيف جاء ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلى﴾ مع قوله تعالى: ﴿فَلاَ تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ﴾؟ قلنا: المثلُ الذي يذكره الله حقٌّ وصدقٌ، والذي يذكره غيره فهو باطل، أي لا تمثّلوا لله بالأمثال الباطلة ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي المتفرِّدُ بكمال القدرة ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي يفعل بمقتضى الحكمة والمصلحة.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ﴾ أي الكفار ﴿بِظُلْمِهِم﴾ بكفرهم ومعاصيهم، التي من جملتها ما عُدّد من قبائحهم ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا﴾ أي على الأرض ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ أي ما ترك شيئاً من دابة قط بل أهلكها بالمرة، بشؤم ظلم الظالمين، كقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾[1] فإن قيل: لم يصدر عن الدابة ذنبٌ، فكيف يجوز إهلاكها بسبب ظلم الناس؟ أُجيب بأنها مخلوقة لمنافع البشر، فهي عذاب للبشر أيضاً ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي إلى وقت معيَّن تقتضيه الحكمة ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ أي فإذا جاء الوقت المحدَّد لهلاكهم، لا يتأخرون برهة يسيرة من الزمن ولا يتقدمون عليها، ولا يلزم من عموم الناس، وإضافة الظلم أن يكونوا كلهم ظالمين، لجواز أن يضاف إليهم بما شاع فيهم، وصدر عن أكثرهم.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ۖ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

(١) سورة الأنفال، آية: ٢٥.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ﴾ أي ينسبونه إليه سبحانه في زعمهم ﴿مَا يَكْرَهُونَ﴾ لأنفسهم، مما ذُكر من البنات، وأراذل الأموال، ولأصنامهم أكرمها، وهو تكرار لما سبق للتقريع ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ﴾ أي تقول الكذب[1]، وهو ﴿أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ﴾ أي العاقبة الحسنى عند الله تعالى وهي الجنة كقوله: ﴿وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى﴾ فإن قيل: كيف يقولون بذلك، وهم كانوا منكرين للقيامة؟ قلنا: نعم إنهم كانوا منكرين، فلعلهم قالوا: إن كان البعث حقاً فإنه يحصل لنا العاقبة الحسنى، بسبب هذا الدين الحق الذي نحن عليه، وقيل: كان في العرب جمعٌ يقرُّون بالبعث، ولذلك كانوا يربطون البعير على قبر الميت، ويتركونه إلى أن يموت، ويقولون: إن ذلك الميت إذا حُشر فإنه يُحشر معه مركوبُه فيركب عليه ﴿لَا جَرَمَ﴾ ردٌّ لكلامهم ذلك، وإثبات لنقيضه، أي حقاً ﴿أَنَّ لَهُمُ﴾ مكان ما أمّلوا من الحسنى ﴿النَّارَ﴾ التي ليس وراء عذابها عذاب ﴿وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ﴾ أي مقدّمون إليها ومعجّلون، من أفرطتُه أي قدَّمته في طلب الماء، والفَرَط: بفتحتين المتقدم لطلب الماء.

﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ تسلية لرسول الله ﷺ عما يناله من جهالة الكفرة، ووعيد لهم على ذلك، أي أرسلنا إليهم رسلاً فدعوهم إلى الحق، فلم يجيبوا إلى ذلك ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ القبيحة ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ﴾ أي قرينهم في الدنيا يغريهم ويغويهم ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هو عذاب النار.

---

(١) حكي أن أبا يوسف ردَّ الشهادة على واحد من أقرباء هارون الرشيد، فشكى للخليفة فقال هارون: لمَ رددت شهادته؟ قال: لأني سمعته يوماً بين يديك يقول: عبدُك، فإن كان صادقاً، فلا تقبل شهادة للعبد، وإن كان كاذباً فلا شهادة للكاذب!!.

﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ .

﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ أي القرآن ﴿ إِلَّا لِتُبَيِّنَ ﴾ أي ما أنزلناه عليك لعلة من العلل إلا لتبين وتوضّح ﴿ لَهُمُ ﴾ أي للناس ﴿ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾ من التوحيد، والقدر، وأحوال المعاد ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ أي للهداية والرحمة ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ لأنهم المغتنمون من آثاره، ولا ينفي كونه كذلك في حق الكل.

﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ .

﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ هذا تكرير لما سبق، تأكيداً لمضمونه، وتوطئةً لما يعقبه من أدلة التوحيد، لأن المقصود الأعظم من القرآن الكريم تقرير أصول أربعة: الإلهيات، والنبوات، والمعاد، وإثبات القضاء والقدر، والأحرى بالبيان أولاً تقرير الإلهيات، فلهذا السبب، كلما امتدَّ الكلام في فصل من الفصول، عاد إلى تقرير الإلهيات ﴿ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾ بما أنبت به فيها من النباتات ﴿ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾ أي يبسها ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ أي في إنزال الماء، وإحياء الأرض الميتة به ﴿ لَءَايَةً ﴾ دالة على وحدانيته سبحانه، وعلمه، وقدرته، وحكمته ﴿ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ سمع إنصاف وتدبر وتفكر، لا سماع الآذان لأن من لا يسمع بقلبه، فكأنه لم يسمع.

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ .

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ ﴾ وأيَّ عبرة تحار في دركها العقول ﴿ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ ﴾ أي بطون الأنعام والتذكير لمراعاة جانب اللفظ، فإنه اسم جمع

كالرهط، والقوم، فهو بحسب اللفظ مفرد، وبحسب المعنى جمع، وقال في سورة المؤمنين: ﴿في بُطُونِهَا﴾ ﴿مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ﴾ الفرث، فُضالة ما يبقى من العلف في الكرش، المنهضم بعض الانهضام، وكثيف ما يبقى في المِعَىٰ، فإذا خرج من الكرش لا يسمى فرثاً، وذلك أن الحيوان إذا تناول الغذاء، وصل ذلك إلى معدته إن كان إنساناً، وإلى كرشه إن كان من الأنعام، فإذا حصل الهضم الأول فيه، فما كان منه صافياً انجذب إلى الكبد، وما كان كثيفاً نزل إلى الأمعاء، ثم ذلك الذي في الكبد، ينطبخ فيها ويصير دماً، وهو الهضم الثاني، فالدم يذهب في الأوردة، وهناك يحصل الهضم الثالث، وبين الكبد وبين الضروع عروق كثيرة، فينصبُّ بعض الدم من تلك العروق إلى الضروع، فيبيض لمجاورته لحومها الغددية البيض، ويلذُّ طعمه فيصير لبناً، ومن تدبَّر في بدائع صنعه تعالى، فيما ذكر من أخلاطٍ، وألبان، والأسباب المولدة لها، وتسخير القوى المتصرفة فيها، كل وقت على ما يليق به، اضطر إلى الاعتراف بكمال علمه تعالى، وقدرته، وحكمته، ورأفته، ورحمته ﴿لَّبَنًا خَالِصًا﴾ صافياً لا يستصحب لون الدم، ولا رائحة الفرث، ومصفى عما يصحبه من الأجزاء الكثيفة ﴿سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ﴾ سهل المرور في حلقهم، قيل: إنه لم يغص أحد باللبن قطُّ.

﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَـٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ﴾ أي ولكم عبرة فيما نسقيكم ونرزقكم من ثمرات النخيل ﴿وَٱلْأَعْنَـٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ والسَّكَرُ مصدر سمّي به الخمر، والسكر يكون من العنب، أو عصير الرطب إذا اشتد وأسكر ﴿وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ كالتمر، والدبس، والزبيب، والخل، والآية إن كانت سابقة النزول على تحريم الخمر، فدالة على كراهتها، وإلا فجامعة بين العتاب والمنة ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً﴾ باهرة ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي يستعملون عقولهم في الآيات، بالنظر والتأمل، ويعلمون بالضرورة، أن هذه الأحوال لا يقدر عليها أحد إلا الله.

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ أي ألهمها وركّز في أنفسها هذه الأعمال العجيبة، التي يعجز عنها العقلاء من البشر ﴿أَنِ ٱتَّخِذِى﴾ أي بأن اتخذي ﴿مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ أي أوكاراً، وإنما سمي بيتاً، لما فيه من حسن الصنعة، التي لا يقوى عليها حُذَّاق المهندسين، إلاّ بآلات وأنظار ﴿وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ أي يعرشه الناس، أي يرفعه من كرم أو سقف والمعنى: اتخذي بيوتاً لنفسك من الجبال، والشجر، وإلاّ فاتخذي ما يعرشونه لك، وإيراد حرف التبعيض «من» لما أنها لا تبني في كل جبل، وفي كل شجر، بل في البعض.

﴿ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ من كل ثمرة تشتهيها حلوها ومرها ﴿فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ﴾ أي مسالكه التي برأها، بحيث يحيل فيها بقدرته تعالى، النَّوْر المرَّ عسلاً من أجوافك، أو فاسلكي الطرق التي ألهمك في عمل العسل، راجعة إلى بيوتك لا تتوعر عليك ولا تلتبس ﴿ذُلُلًا﴾ جمع ذلول، أي مذللة غير متوعرة، ذللها الله سبحانه وسهَّلها لك ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا﴾ عدل به عن الخطاب ليظهر منها من تعاجيب صنع الله التي هي موضع العبرة بعدما أُمرت بما أُمرت ﴿شَرَابٌ﴾ أي عسل لأنه مشروب، واحتج به وبقوله كل من زعم أن النحل تأكل الأزهار والأوراق العطرة، فتستحيل في بطنها عسلاً، ثم تقيأ ادخاراً للشتاء وقيل: هو أنه يحدث في الهواء طَلٌّ لطيف في الليالي، ويقع ذلك الطلُّ على أوراق الأشجار والأزهار، فتكون تلك الأجزاء لطيفة صغيرة، والنحل تلتقط تلك الذرات بأفواهها وتذهب بها إلى

بيوتها لتدخر لنفسها غذاءها، والقائلون بهذا فسروا البطون بالأفواه لأن كل تجويف في داخل البدن فإنه يسمى بطناً، وكذا ههنا (من بطونها) أي من أفواهها، والقول الأول أولى وأصح، لأنا نشاهد أنه يوجد في طعم العسل، طعم تلك الأزهار التي تأكلها النحل، وكذلك يوجد لونها وريحها وطعمها فيه أيضاً، لا ما قاله الآخرون من أنه طلٌّ، لأنه لو كان طلاً لكان على لون واحد، وطبيعة واحدة، والله أعلم ﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ ما بين أبيض، وأصفر، وأسود، لاختلاف سنّ النحل، والفصل، والذي أخذت منه العسل ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ إما بنفسه كما في الأمراض البلغمية، أو مع غيره كما في سائر الأمراض، إذ قلَّما يوجد معجون لا يكون فيه عسل، مع أن التنكير فيه مُشْعِرٌ بالتبعيض، ويجوز كونه للتفخيم، فإن قالوا: كيف يكون شفاءً للناس، وهو يضر بالصفراء ويهيج المرارة؟ قلنا: إنه تعالى لم يقل إنه شفاء لكل الناس، أو لكل داء، وفي كل حال، بل لمَّا كان شفاءً للبعض، ومن بعض الأدواء، صلح بأن يوصف بأنه فيه شفاء. روى الشيخان عن أبي سعيد الخدري قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إن أخي استطلق بطنُه، فقال ﷺ: «اسقه عسلاً، فسقاه ثم جاء فقال إني سقيته عسلاً فلم يزده إلاَّ استطلاقاً، فقال له ذلك ثلاث مرات، ثم جاء الرابعة فقال: اسقه عسلاً فقال لقد سقيته فلم يزده إلا استطلاقاً فقال ﷺ: «صدق الله، وكذبَ بطنُ أخيك، فسقاه فبرأ»[1] اعترض بعض الملحدين على هذا الحديث، فقال: إن الأطباء مجمعون على أن العسل مسهِّل، فكيف يوصى لمن به الإسهال؟ أجيب بأن المسهِّل يقطع الإسهال بالتنقية ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكر من أعاجيب آثار قدرة الله تعالى ﴿لَآيَةً﴾ عظيمة ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فإنَّ من تفكَّر في اختصاص النحل بتلك الصنائع الدقيقة، والأفعال العجيبة، جزم قطعاً بأن لها خالقاً قادراً، يلهمها ذلك، ويهديها إليه، وألهمها أيضاً أن

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الطب ١٠/١٣٩ ومسلم رقم ٢٢١٧ باب التداوي بسقي العسل.

تجعل عليها أميراً نافذ الحكم فيها، ويكون هذا الآمر أكبرها جثة، وهي تطيعه، وتمتثل أمره، وألهمها الله تعالى أيضاً، أن جعلت على باب كل خلية بواباً، لا يمكّن غير أهلها من الدخول إليها، وأنها تخرج من بيوتها وتدور وترعى ثم ترجع إلى بيتها، ولا تضل عنها، ولما امتاز هذا الحيوان الضعيف، بهذه الخواص العجيبة، الدالة على مزيد الذكاء والفطنة، دل ذلك على الإلهام الإلٰهي.

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ ﴾.

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ﴾ أي أوجدكم من العدم، وأخرجكم إلى الوجود، ولم تكونوا شيئاً مذكوراً، ولما ذكر سبحانه وتعالى من عجائب أحوال ما ذكر من الماء، والنبات، والأنعام، والنحل، أشار إلى بعض عجائب أحوال البشر. من أول عمره إلى آخره فقال: ﴿والله خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ﴾ وقد ضبطوا مراتب العمر في أربع: الأولى: سن النشوء والنماء، ونهايته إلى ثلاثين سنة، والثانية: سن الوقوف وهو يتم بالأربعين، والثالثة: سنُّ الكهولة وهو يتمُّ بالستين، والرابعة: سنُّ الشيخوخة وهو بعد الستين، وطول الأعمار ليس من الجود الخاص، الذي يختص الله به بعض عباده كالرسالة، وإنما طول الأعمار وقصرها، وحدوث الأمراض التي تعرض للبشر، على وفق السنن العامة، ولذلك كانت عامة في المؤمن والكافر، فهي كمسألة الرزق، في سعته وضيقه، كما قال الله تعالى: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَـٰؤُلَاءِ وَهَـٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾[1] ﴿ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ﴾ عند انقضاء آجالكم، حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على حِكَم بالغة، بآجال مختلفة، أطفالاً وشباباً، وكهولاً وشيوخاً ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ ﴾

(١) سورة الإسراء، آية: ٢٠.

قبل موته ﴿إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ أي أخسّه وأضعفه، وإيثار الرد على البلوغ، للإيذان بأن بلوغه إليه، رجوع في الحقيقة إلى الضعف بعد القوة، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الخَلْقِ﴾[1] ولا عمر أسوأ حالاً من عمر الهَرِم، الذي يشبه الطفل، وقيل: ليس هذا في المسلمين، لأن المسلم لا يزاد في طول العمر، إلا كرامة من عند الله تعالى والدليل عليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ. إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعمِلوا الصَّالِحَاتِ﴾[2] عن أنس قال: كان ﷺ يدعو بهذه الدعوات «اللهم إني أعوذ بك من البخل، والكسل، وأرذل العمر، وعذاب القبر، وفتنة المحيا والممات»[3] ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ﴾ كثير ﴿شَيْـًٔا﴾ من العلم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بمقادير أعماركم ﴿قَدِيرٌ﴾ على كل شيء أراده، يميت الشاب النشيط، ويبقي الهرم الفاني، مع نقصان العقل والقوة، وفيه تنبيه على أن تفاوت الآجال، ليس إلا بتقدير قادر حكيم، ولو كان ذلك مقتضى الطبائع، لما بلغ التفاوت هذا المبلغ.

﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾﴾.

﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ﴾ أي جعلكم متفاوتين؛ فمنكم غني ومنكم فقير، وهذا التفاوت غير مختص بالمال، بل هو حاصل في الذكاء، والبلادة، والحسن والقبح، والعقل والحمق، والصحة والسقم، وهذا بحر لا ساحل له، وهذا اعتبارٌ لحالٍ أخرى من أحوال الإنسان، وذلك أنَّا نرى أكيس الناس، يفني عمره في طلب المقدر من الدنيا، ولا

---

(١) سورة يس، آية: ٦٨.

(٢) سورة التين، الآيتان: ٥ و٦.

(٣) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء رقم ٢٧٠٦.

يتيسَّر ذلك له، ونرى أجهل الخلق تنفتح عليه أبواب الدنيا، ولو كان السبب الجهدَ والعقلَ، لما رأينا هكذا، فعلمنا أن ذلك بسبب قسمة القسَّام كما قال تعالى: ﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا﴾ وقد كنتُ مصاحباً لبعض الناس في بعض الأسفار، وكان ذلك كثير المال، ربما حضرت الأطعمة الشهية، والفواكه العطرة عنده، وما كان يمكنه تناول شيء منها ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا﴾ فيه على غيرهم ﴿بِرَآدِّى﴾ أي بمعطي ﴿رِزْقِهِمْ﴾ الذي رزقهم إياه ﴿عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ على مماليكهم الذين هم شركاؤهم في المخلوقية، والمرزوقية ﴿فَهُمْ﴾ أي المُلَّاك والمماليك ﴿فِيهِ﴾ في الرزق ﴿سَوَآءٌ﴾ أي لا يردُّونه عليهم بحيث يساوونهم في التصرف، فحيث لا يرضون بمساواة مماليكهم لأنفسهم، وهم أمثالهم بالبشرية والمخلوقية، وهم أُسْوَةٌ لهم في استحقاق الرزق، فما بالهم يشركون بالله سبحانه بعض مخلوقاته، الذي هو بمعزل من درجة الاعتبار؟ وهذا كما ترى مثَلٌ ضُرب لقباحة ما فعله المشركون، كقوله تعالى: ﴿هَلْ لَكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاء﴾؟ ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ حيث يفعلون ما يفعلون من الإشراك، فإن ذلك يقتضي أن يضيفوا نعم الله سبحانه إلى شركائهم، ويجحدوا كونها من عند الله تعالى، كما أن أهل الطبائع يضيفون الأشياء إلى الطبيعة.

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ من جنسكم ﴿أَزْوَٰجًا﴾ لتأنسوا بها وتقيموا بذلك جميع مصالحكم[1] ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ وضع الظاهر

(١) لقد شرع الله عزَّ وجل الزواج حفظاً للنسل، وصيانة للبشر من الأمراض والآثام، =

للإيذان بأن المراد جعل لكل منكم، من زوجه لا من زوج غيره ﴿بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ جمع حافد، وهو الذي يسرع في الخدمة، ومنه قول القانت: «وإليك نسعى ونحفد» أي جعل لكم خدماً يسرعون في خدمتكم والمراد بهم أولاد الأولاد، حَفَد من باب ضرب أسرع وحَفَده خدمه، فهو حافد، والجمع حفدة، مثل كافر وكفرة ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ من اللذائذ أو من الحلالات ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾؟ الفاء للعطف على مقدر، أي أيكفرون بالله الذي شأنه هذا فيؤمنون بالباطل؟ ﴿وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ الفائضة عليهم مما لا يحيط به دائرة البيان ﴿هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ حيث يضيفونها إلى الأصنام؟ وتقديم الصلة للاهتمام ولرعاية الفواصل.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ عطف على ﴿يكفرون﴾ داخل تحت الإنكار، أي أيكفرون بنعمة الله، ويعبدون من دونه؟ ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا﴾ أي شيئاً ما، قليلاً أو كثيراً، والرزق الذي يأتي من جانب السماء هو الغيث، أي ما لا يقدر على أن يرزقهم شيئاً من السماوات والأرض ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي ولا يمكنهم أن يملكوه، إذ لا استطاعة لهم رأساً، لأنها مَوات لا حراك بها.

= واحتراماً للعلاقات الاجتماعية، ومعاونة على الحياة بين الزوجين، لتدوم بينهما المودة والرحمة كما قال سبحانه: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة﴾ ووضع أحكاماً للزواج منها ولي الأمر وهو الأب أو الأخ أو غيرهما من العصبات، ومنها الشهود، ورضى الزوجة البالغة، والمهر، وغير ذلك تقديراً منه لأهمية الدور العظيم الذي يتم عليه بناء الأسرة، وهذه الشروط وضعها الإسلام لتكون الأعراض مصونة من المجون والعبث، فتدبَّر حكمة الله سبحانه!!.

﴿ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ .

﴿ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ ﴾ التفات إلى الخطاب للاهتمام بشأن النهي، أي لا تشركوا به شيئاً، والتعبير عن ذلك بضرب المثل، للقصد إلى النهي عن الإشراك به تعالى في شأن من الشؤون، فإن ضرب المثل مبناه تشبيه حالة بحالة، أي لا تشبِّهوا بشأنه تعالى شيئاً من الشؤون ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ ﴾ أي إن الله يعلم فساد ما تقولون، وعظم جرمكم فيما تفعلونه ﴿ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي إنه تعالى يعلم كنه الأشياء، وأنتم لا تعلمون، فدعوا رأيكم، وقفوا مواقف الامتثال، لما ورد عليكم من الأمر والنهي، ويجوز أن يراد فلا تضربوا لله الأمثال، إن الله يعلم كيف يضرب الأمثال ﴿ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ذلك، فتقعون في مهاوي الردى والضلال.

﴿ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ .

﴿ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا ﴾ أي أورد شيئاً يستدل به على تباين الحال، بين الله عزَّ وجلَّ وبين ما أشركوا به ﴿ عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾ وُصف العبدُ بالمملوكية، للتمييز عن الحر، وبعدم القدرة لتمييزه عن المكاتب والمأذون، واحتج الفقهاء بهذه الآية على أن العبد لا يملك شيئاً ﴿ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا ﴾ أي من جانبنا ﴿ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ أي حلالاً طيباً ﴿ فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ ﴾ تفضلاً وإحساناً ﴿ سِرًّا وَجَهْرًا ﴾ إنفاق سر، وإنفاق جهر، والمراد بيان إنفاقه وشمول إنعامه لمن لا يرضى قبوله جهراً، والإشارة إلى أصناف نعم الله الباطنة والظاهرة ﴿ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ﴾؟ أي هل يستوي العبيد والأحرار الموصوفون بما ذكر؟ فحيث لم يستو الفريقان فما ظنكم برزَّاق العالمين حيث تشركون به ما لا حياة له من الجماد ولا نفع؟ ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ ﴾ أي كله

لله، لأنه مولي جميع النعم، لا يستحقه أحد غيره، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما ذكر فيضيفون نعمه تعالى إلى غيره، ويعبدونها لأجلها، ونفي العلم عن الأكثر، إشعار بأن بعضهم يعلمون ذلك، وإنما لا يعملون بموجبه عناداً.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ آخر يدل على ما دلَّ عليه المثل السابق، على وجه أوضح ﴿رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ﴾ الأبكمُ: هو من وُلِد أخرس، وعن الزجاج أنه الذي لا يسمع ولا يبصر ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ من الأشياء المتعلقة بنفسه أو بغيره، لقلة فهمه، وسوء إدراكه، وهو إشارة إلى عجزه التام ﴿وَهُوَ كَلٌّ﴾ أي ثقيل عالةٌ على سيده، والكلُّ بالفتح الثقل ﴿عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾ الذي يلي أمره ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ﴾ أي حيث يرسله مولاه في أمر ولو كان مصلحة يسيرة ﴿لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ أي لا يُفلحُ ولا ينجح ﴿هَلْ يَسْتَوِى هُوَ﴾ مع ما فيه من الأوصاف المذكورة ﴿وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾؟[1] أي من هو منطيق، فَهِمٌ، ذو رأي وكفاية ورشد ينفع الناس بحثهم على العدل

---

(١) ضرب الله تعالى مثلين بديعين: **الأول**: ضربه لنفسه سبحانه وللأوثان، فالله هو المالك لكل شيء، ينفق كيف يشاء على عباده، ليلاً ونهاراً، والأوثان والأصنام مملوكة عاجزة لا تقدر على شيء، فكيف يجعلونها شركاء لله، ويعبدونها من دون الله، مع التفاوت العظيم بين الإله القادر، والوثن العاجز؟ **والمثل الثاني**: ضربه الله للصنم الذي يعبد من دونه، ومثل له بصورة رجل أخرس، بليد الحس والذهن، لا يعقل ولا ينطق، بل هو أبكم القلب واللسان، ومع هذا هو عاجز لا يقدر على شيء مطلقاً، أينما أرسلته لا يأتِكَ بخير، ولا يقضِ لك حاجة، هل يتساوى مع رجل بليغ متكلم، ينطق بأفصح بيان، وهو على طريق مستقيم؟.

﴿وَهُوَ﴾ في نفسه مع ما ذكر ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي على سيرة صالحة، ودين قويم، وهذا مثل ثانٍ ضربه الله عزَّ وجلَّ لنفسه، ولما يُفيض على عباده من إنعامه، وللأصنام التي هي جماداتٌ لا تنطق ولا تسمع، وهي كَلٌّ على عابديها، لأنها تحتاج إلى الحمل والخدمة.

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ ﴾.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لا لأحد غيره، أي الأمور الغائبة عن علوم المخلوقين قاطبة، بحيث لا سبيل لهم إليها، لا مشاهدة ولا استدلالاً، وفيه إشعار بأن علمه سبحانه حضوري، ولذلك لم يقل: ولله علم غيب السموات والأرض ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ﴾ التي هي أعظم الغيوب، فإن وقت وقوعها مختصٌ به سبحانه، أي ما شأنها في سرعة المجيء ﴿إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ أي كرجع الطرف، من أعلى الحدقة إلى أسفلها ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ أي بل هو أقرب من ذلك وأسرع ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي لا يعجزه شيء، وقدرته لا حدَّ لها، ومن جملة الأشياء، أن يجيء بها أسرع ما يكون، فهو قادر على ذلك، فيقدر على أن يحيي الخلائق دفعة، كما قدر على إحيائهم متدرجاً، وقد قرَّب العلمُ في هذا العصر، أمر البعث من العقول، بما قرَّره من كون كل ما في العالم، ثابت أصله لا يزول، وإنما هلاك الأشياء وفناؤها، عبارةٌ عن تحلل موادِّها، وتفرقها، وبما أثبته من تركيب المواد المتفرقة، وإرجاعها إلى تركيبها الأول في غير الأحياء، بل تصدى بعض علماء الألمان، لإيجاد البشر بطريقة علمية صناعية، بتنمية البذرة التي يولد منها الإنسان، وزعم أنه يمكن باتخاذ وسائل لتغذية المضغة، في حرارة كحرارة الرحم، أن تتولد فيها الأعضاء، حتى تكون إنساناً، وقد بيَّن تجربته ونظرياته في خطاب قرأه على طائفة إلى علماء الكون، فأُعجبوا بنظرياته، ولم ينكر أحد منهم إمكان ذلك، وهذا وإن

أمكن، ولكنْ أَنَّىَ لهم أن ينفخوا فيه الروح، ليصبح بشراً سوياً؟ فهل يعجز عنه خالق البشر؟ قال الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ﴾.

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم ﴾ عطف على قوله تعالى: ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً﴾ منتظم معه في أدلة التوحيد ﴿ مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾ أي غير عالمين شيئاً أصلاً ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ﴾ أي جعل لكم هذه الأشياء آلات، تحصلون بها العلم والمعرفة، بأن تُحسُّوا بمشاعركم الأشياء، وتدركوها بأفئدتكم، فإذا أبصر الطفل شيئاً مرة بعد أخرى، ارتسم في خياله ماهية ذلك المبصر، وكذا إذا سمع شيئاً، وكذا القول في سائر الحواس، والأفئدة جمع فؤاد، وهو وسط القلب ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ كي تعرفوا ما أنعم الله به عليكم فتشكروه، فقد جعل لكم السمع، لتسمعوا مواعظ الله، والأبصار لتبصروا دلائل الله، والأفئدة لتعقلوا عظمة الله عزَّ وجلَّ.

﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾.

﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ ﴾ أي ألم ينظروا إليها، جمع طائر ﴿مُسَخَّرَٰتٍ﴾ مذلَّلات للطيران، بما خلق لها من الأجنحة، والأسباب المساعدة له، وتسخير الهواء للطير لتطير فيه كيف تشاء، وفيه تنبيه على أن الطيران ليس بمقتضى طبيعة الطير، بل ذلك بتسخير الله تعالى ﴿ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ ﴾ أي في الهواء المتباعد من الأرض، والجوُّ: هو الفضاء الواسع بين السماء

والأرض ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ في الجو حين قبض أجنحتهن، وبسطها، ووقوفهن ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ عزَّ وجل بقدرته الواسعة، فإن ثقل جسدها، ورقة الهواء يقتضيان السقوط، ولا علاقة من فوقها، ولا دعامة من تحتها، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكر من تسخير الطير للطيران، بأن خلقها خلقة تتمكن بها منه بأن جعل لها أجنحة خفيفة، وأذناباً كذلك وجعل أجسادها من الخفة بحيث إذا بسطت أجنحتها وأذنابها، انعدم ثقلها فتخرق ما تحتها من الهواء وتخرق ما بين يديها من الهواء ولأنها لا تلاقيها بحجم كبير ﴿لَآيَٰتٍ﴾ ظاهرة ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي من شأنهم أن يؤمنوا بأن المخلوق لا غنى به عن الخالق، وإن كانت هذه الآيات آيات لكل ذوي العقول.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ﴾ أي لمصلحتكم ومنفعتكم، وهذا نوع آخر من دلائل التوحيد، التي ذكرها الله عزَّ وجل في هذه السورة الكريمة، أي جعل لكم ومن أجل راحتكم ومصلحتكم ﴿مِّنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ التي تبنونها من الحجر والمدر ﴿سَكَنًا﴾ أي موضعاً تسكنون فيه وقت إقامتكم، وتطمئنون به، من غير أن ينتقل من مكانه ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا﴾ أخرى مغايرة لبيوتكم، هي الخيامُ، والقباب، والأخبية، والفساطيط ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ تجدونها خفيفة، يخفُّ عليكم حملها ونقلُها ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ أي يوم ارتحالكم، في الحمل والنقل، يقال: ظَعَن ظعناً أي ارتحل ﴿وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ﴾ وقت نزولكم في المساكن والبناء ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ﴾ أي وجعل لكم من أصواف الضأن، وأوبار الإبل، وأشعار المعْز ﴿أَثَٰثًا﴾ أي متاع البيت ﴿وَمَتَٰعًا﴾ أي شيئاً يتمتع به ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ إلى مدة من الزمان.

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾.

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ﴾ من غير صنع من قِبَلِكُم ﴿ ظِلَٰلًا ﴾ أشياء تستظلون بها من الحر، كالغمام، والشجر، والجبل، وغيرها، امتن سبحانه بذلك لما أن تلك الديار غالبة الحرارة ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا ﴾ مواضع تسكنون فيها من الكهوف، والمغارات، والسروب ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ ﴾ جمع سربال، وهو الثوب الذي يلبس، أي جعل لكم ثياباً من القطن، والكتان، والصوف وغيرها ﴿ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ ﴾ خصَّه بالذكر اكتفاءً بأحد الضدين، ولأن الوقاية من الحر أهم عندهم ﴿ وَسَرَٰبِيلَ ﴾ من الدروع والحديد ﴿ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾ أي في الحرب من الضرب والطعن، ولقد منَّ الله سبحانه على عباده، حيث ذكر نِعَمه الفائضة على جميع الطوائف، فبدأ بما يخصُّ المقيمين حيث قال: ﴿مِن بُيُوتِكُم سَكَنَاً﴾ ثم بما يخص المسافر بقوله: ﴿مِن جُلُودِ الأَنعَامِ﴾ ثم بما يعمُّ من لا يقدر على الخيام حيث قال: ﴿مِمَّا خَلَقَ ظِلالاً﴾ ثم لا بدَّ لكل أحد من الستر حيث قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم سَرَابِيلَ﴾ ثم قال: ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي مثل ذلك الإنعام ﴿ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ ﴾ من النعم الظاهرة والباطنة، فتعرفوا حق منعمها، فتؤمنوا به وحده، وتذروا ما كنتم به تشركون ﴿ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ أي تنقادون لأوامره جلَّ جلاله، ولتتفكروا فيها، فتؤمنوا به، فتَسْلَموا من عذاب الله.

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ ﴾.

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ ﴾ فإن أعرضوا عن الإسلام، ولم يقبلوا منك ما ألقي إليهم من البينات، والعبر، والعِظات ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ أي ليس عليك إلا تبليغ دعوة الله، وقد فعلتَهُ، وحسابُهم على الله تعالى.

﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ﴾ أي يعرفون عن يقين نِعم الله تعالى التي أنعم بها عليهم، ويقولون: إنها من عند الله ﴿ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ بأفعالهم حيث يعبدون غير منعمها، وقيل: نعمة الله نبوة الرسول ﷺ، عرفوها بالمعجزات، كما يعرفون أبناءهم، ثم أنكروها عناداً، ﴿ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ أي المنكرون بقلوبهم غير معترفين بما ذكر.

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ﴾ يشهد لهم بالإيمان، أو بالكفر والعصيان، وهو نبيها كما قال تعالى: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ ﴿ ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ في الاعتذار لقوله تعالى: ﴿ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾ وقيل لا يؤذن في الكلام أصلاً، وهو عندما يقال لهم: ﴿اخْسَئُوا فيها وَلاَ تُكَلِّمُونِ﴾ ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ أي لا يقال لهم: أَرْضُوا ربَّكم، إذ الآخرة دار الجزاء، لا دار العمل، مأخوذ من العُتبى وهي الرضا، عَتَبَ عليه: لاَمَه في تسخط، وأعتبني أي أزال الشكوى والعتاب، واستعتب طلب الإعتاب، والعُتبى اسم من الإعتاب.

﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾ الذي يستوجبونه، وهو عذاب جهنم، ووصلوا إليه فعند ذلك ﴿ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ ﴾ العذاب ﴿ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ أي

يُمهلون، كقوله تعالى: ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾[1].

﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ﴾ يوم القيامة ﴿ شُرَكَآءَهُمْ ﴾ الذين يدعونهم في الدنيا وهم الأوثان والشياطين ﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ ﴾ أي نعبدهم ونطيعهم، وهذا اعتراف بأنهم كانوا مخطئين، وقالوا ذلك طمعاً في توزيع العذاب بينهم، كما ينبىء عنه قوله سبحانه: ﴿ فَأَلْقَوْا۟ ﴾ أي شركاؤهم ﴿ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ وإنما كذبوهم وقد كانوا يعبدونهم، لأن الأوثان ما كانوا راضين بعبادتهم لهم[2]، فكأنَّ عبادتهم لم تكن لهم، وإنما عبدوا أهواءهم، ولا يمتنع إنطاق الله الأصنام به، فيزدادون بذلك غماً وندامة، كما قالت الملائكة: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الجِنَّ﴾ وكما قال الشيطان: ﴿ومَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾.

﴿ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

﴿ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أي الذين ظلموا وأشركوا ﴿ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ ﴾ أي الاستسلام لأمر الله وحكمه، بعد الإباء والاستكبار في الدنيا ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم ﴾ أي ضاع وبطل ﴿ مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ من أن لله شركاء، وأنهم ينصرونهم ويشفعون لهم.

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ٤٠.

(٢) فإن قيل: كيف أثبت للأصنام نطقاً ونفاه عنها في سورة الكهف: ﴿فدعوهم فلم يستجيبوا لهم﴾ فالجواب أن هنا النطق بتكذيب المشركين، والمنفي عنها النطق بالإذن بالشفاعة، فلا تنافي بين النصين، والله أعلم.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ في أنفسهم ﴿وَصَدُّوا۟﴾ غيرهم ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بالمنع عن الإسلام، والحمل على الكفر ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ الذي كانوا يستحقونه بكفرهم ﴿بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾ أي زدنا عذابهم، بسبب استمرارهم على الإفساد، وهو الصدُّ المذكور.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ تثنية للتهديد وهو نبيهم ﴿عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ من جنسهم، قطعاً لمعذرتهم، وفي قوله عليهم إشعار بأن شهادة أنبيائهم تكون بمحضر منهم ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا رسول الله وإيثار لفظ المجيء على البعث، لكمال العناية بشأنه ﷺ ﴿شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي الأمم وشهدائهم كقوله تعالى: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا﴾؟ وقيل على أمتك والمراد به يوم القيامة، وتم الكلام ههنا ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا﴾ أي توضيحاً شافياً وبياناً بليغاً ﴿لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ يتعلق بأمور الدين، ومن جملة ذلك أحوال الأمم مع أنبيائهم، فيكون كالدليل على كونه ﷺ شهيداً عليهم، وكونه تبياناً لكل شيء باعتبار أن فيه نصاً على بعضها، وإحالة لبعضها على السُنَّة، حيث أمر باتباع النبي ﷺ وحثاً على الإجماع، وقال ﷺ: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»[1] وقد اجتهدوا وقاسوا، فكانت السنةُ، والإجماعُ، والقياسُ

(١) الحديث أخرجه رُزَين، وذكره السيوطي في الجامع الصغير، ونسبه لابن عساكر، =

مستنداً إلى تبيان الكتاب، ولم يضر ما في البعض من الخفاء في كونه تبياناً، فإن المبالغة باعتبار الكمِّية، دون الكيفيَّة ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ للعالمين، فإن حرمان الكفرة من مغانم آثاره، من تفريطهم لا من جهة الكتاب ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ خاصة لأنهم المنتفعون بذلك.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ﴾ فيما نزَّله تبياناً لكل شيء ﴿بِٱلْعَدْلِ﴾ بمراعاة التوسط بين طرفي الإفراط، والتفريط، وهو رأس الفضائل كلها، ويندرج تحتها فضيلة الاعتقاد كالتوحيد، المتوسط بين التعطيل والتشريك، وفضيلة الأخلاق كالجود المتوسط بين البخل، والتبذير، والشجاعة المتوسطة بين التهور والجبن، وفضيلة العمل كأداء الواجبات المتوسطة بين البطالة والترهب، فظهر بهذه الأمثلة أن العدل واجبُ الرعاية في جميع الأمور[1]، ومنْ الكلمات المشهورة «بالعدل قامت السماوات والأرض» والعدل في الحقوق بالتسوية في الخصومة، وترك الظلم، وإيصال كل ذي حق إلى حقه ﴿وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ الإتيان بما أمر به على الوجه اللائق، وهو ما بحسب الكميّة كالتطوع بالنوافل، أو بحسب الكيفية كما يشير إليه، قول النبي ﷺ: «الإحسانُ: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإن الله يراك» والإحسان في المكافأة أن تحسن إلى من أساء إليك، ومن الإحسان الشفقةُ

= ورواه ابن عبد البر في جامع العلم ٩/٢ ولا يخلو إسناده من ضعف، وانظر الروايات في جامع الأصول ٥٥٦/٨.

(١) العدل بين العبد وبين الله: إيثار حقِّ الله على حق نفسه، بملازمة جميع الأوامر، والاجتناب عما نهى الله عنه، والعدل بينه وبين نفسه: منعها مما فيه هلاكها وإذلالها والعدلُ بينه وبين الخلق: بذل النصيحة إليهم وترك الخيانة معهم.

على خلق الله[1] وأجلُّها صلةُ الرحم، ولذا أفرده بالذكر، فقال: ﴿وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وهو تخصيص بعد التعميم اهتماماً بشأنه ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾ عن الإفراط في متابعة القوة الشهوانية، كالزنا فإنه أقبح أحوال الإنسان وأشنعها، وقيل: الفحشاء ما قبح من الفعل، والقول، فيدخل فيه جميع الأفعال القبيحة، والأقوال المذمومة ﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾ ما ينكر شرعاً وعقلاً على متعاطيه في إثارة القوة الغضبية ﴿وَٱلْبَغْىِ﴾ الاستعلاء والاستيلاء على الناس، والتجبر عليهم، وهو من آثار القوة الوهمية الشيطانية، التي هي حاصلة من القوتين: الشَهَوانية، والغضبية، وليس في البشر شر، إلاّ وهو مندرجٌ في هذه الأقسام الثلاثة، ولذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه: «هي أجمعُ آية في القرآن، للخير والشر، ولو لم يكن فيه غير هذه الآية الكريمة، لكفت في كونه تبياناً لكل شيء»[2] ﴿يَعِظُكُمْ﴾ بما يأمر وينهى ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ طلباً لأن تتعظوا بذلك.

﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾.

﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ أي بكل أمرٍ يجب الوفاء به، من مبايعة للرسول ﷺ أو عهدٍ قطعه على نفسه، وسائر ما يلتزمه الإنسان باختياره ﴿إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾ أي حافظوا على حدود ما عاهدتم الله تعالى، وبايعتم به رسول الله ﷺ ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ التي تحلفون بها عند المعاهدة، أو مطلق الأيمان، وخَصَّ الأيمان بالذكر، تنبيهاً على أنه أولى أنواع العهد

---

(١) روى مسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن المقسطين عند الله، على منابر من نور، الذين يعدلون في حكمهم، وأهليهم وما ولوا».

(٢) أقول: ولهذا يقرأها كل خطيب على المنبر في صلاة الجمعة: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكَّرون﴾ لتكون عظة جامعة للناس كلهم.

بوجوب الرعاية ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ بعد توثيقها باسم الله عزَّ وجلَّ، وإنما قال: ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ للفرق بين الأيمان المؤكدة بالعزم أو بالعقد، وبين اليمين اللغو، يقال في اللغة أكَّد، ووكَّد، لغتان فصيحتان ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ أي شاهداً ورقيباً، والواو للحال، أي لا تنقضوها وقد جعلتم الله كفيلاً، بسبب ذلك الحلف، فإن الكفيل مراعٍ، ومراقب لحال المكفول به، ومهيمن عليه ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ من نقض الأيمان والعهود، فيجازي على ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ﴾ عامٌّ دخله التخصيصُ، لقوله ﷺ: «من حلف على يمين ورأى غيرها خيراً منها، فليأت الذي هو خير، ثم ليكفر عن يمينه»[1] ففيه ترغيبٌ وترهيب، والمراد فيجازيكم على ما تفعلون.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾ أي ما غزلته، مصدر بمعنى المفعول أي مغزولها ﴿مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ أي من بعد إحكام وإبرام ﴿أَنْكَاثًا﴾ أي أنقاضاً، والمراد تقبيح حال الناقض، بتشبيهه بمن هذا شأنُه، وقيل هي امرأة حمقاء اتخذت مغزلاً فكانت تغزل هي وجواريها، من الصباح إلى الظهر، ثم تأمرهنَّ فينقضن ما غزلن، فكان هذا دأبها، وقد ضربه الله مثلاً لكل ناكث للعهد، ومخلفٍ للوعد ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ حال من الضمير أي ولا تكونوا مشابهين لامرأة شأنها هذا، حال كونكم متخذين

---

(١) الحديث أخرجه الشيخان.

أيمانكم حيلةً ومفسدة بينكم، وأصل الدَّخَل، ما يدخلُ الشيء على سبيل الإفساد ما لم يكن منه، وقيل: الدَّخَلُ أن يظهر الرجل الوفاء بالعهد ويبطن نقضه ﴿أَن تَكُونَ﴾ أي لأن تكون ﴿أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ﴾ أي أزيد عدداً، وأوفر مالاً. هذا والزيادةُ قد تكون في العدد، أو في القوة، أو بالشرف ﴿مِنْ أُمَّةٍ﴾ من جماعة أخرى، أي لا تغدروا بقوم لكثرتكم وقلتهم، أو لقوة عدوكم، وضعف حلفائكم، وهذا نهي لمن يحالف قوماً، فإن وجد أكثر منهم ترك العهد مع من حالفه، كقريش فإنهم كانوا إذا رأوا شوكةً في أعادي حلفائهم، نقضوا عهدهم وحالفوا أعداءهم ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ﴾ أي يختبركم بكونكم أربى، لينظر أتتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله، وبيعة رسوله، أم تغترّون بكثرتكم، وقلة المؤمنين وضعفهم؟ ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ حين يجازيكم بأعمالكم، فيتميز المحق من المبطل.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ مشيئة قسرٍ وإلجاء ﴿لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ متفقة على الإسلام ﴿وَلَٰكِن﴾ لا يشاء ذلك لكونه مخالفاً لقضية الحكمة بل ﴿يُضِلُّ مَن يَشَاءُ﴾ إضلاله، حسبما يصرف اختياره ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ هدايته حسبما يصرف اختياره إلى تحصيلها ﴿وَلَتُسْأَلُنَّ﴾ جميعاً يوم القيامة ﴿عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا، وهذا إشارة إلى الكسب الذي عليه يدور أمر الهداية والضلال.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾ تصريح بالنهي عنه بعد التضمين، تأكيداً ومبالغةً في قبح المنهي عنه، أي لا تتخذوا أيمانكم مكراً وغدراً، وتجعلوها خديعة تغرُّون بها الناس، لتحصلوا على بعض منافع الدنيا، قال المفسرون: هذا النهي للذين بايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام، لأن الوعيد الذي بعده وهو قوله تعالى ﴿فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾ لا يليق بنقض غيره أي فتزل عن محجة الحق، بعد ثبوتها عليها ورسوخها فيها بالإيمان، وهذا مَثَلٌ يُذكر لكل من وقع في بلاء ومحنة، بعد عافية ونعمة، أو سقط في ورطة بعد سلامة[1] ﴿وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ﴾ أي العذاب الدنيوي ﴿بِمَا صَدَدتُّمۡ﴾ أو بصد غيركم لأن من نقض العهد سن سنة سيئة لغيرهم لأمد ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ الذي ينتظم الوفاء بالعهود والأيمان ﴿وَلَكُمۡ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ أي ذلك الجزاء الذي تذوقونه عقاب شديد.

﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩٥﴾.

﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ أي لا تأخذوا بمقابلة عهده تعالى وبيعة رسوله ﴿ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ﴾ عرضاً يسيراً يريد عرض الدنيا، وهو ما كانت كفرة قريش، يَعِدُون من حطام الدنيا ضعفاء المسلمين، ويشترطون عليهم الارتداد ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من النصر، والتغنيم، والثواب في الآخرة ﴿هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ مما يعدونكم ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أي إن كنتم من أهل العلم والتمييز وهو تعليل للنهي على طريقة التحقيق.

---

(١) قال الحافظ ابن كثير ٢/ ٣٤٥: هذا مَثَلٌ لمن كان على الاستقامة فحاد عنها، وزلَّ عن طريق الهدى بسبب الأيمان الحانثة، المشتملة عن الصدِّ عن سبيل الله، لأن الكافر إذا رأى المؤمن قد عاهده ثم غدر به، لم يبق له وثوق بالدين، فيصد بسببه عن الدخول في الإسلام ولهذا قال: ﴿وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله﴾.

﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ .

﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ ﴾ تعليل للخيرية، أي ما تتمتعون به من نِعَم الدنيا ـ وإن جلَّ وكَثُر ـ ينفَدُ ويفنى ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ من خزائن رحمته الدنيوية والأخروية ﴿ بَاقٍ ﴾ أي لا نفاد له، أما الأخروية فظاهرة، وأما الدنيوية فحيث كانت موصولة بالأخروية، فقد انتظمت في سمط الباقيات الصالحات، والآية دليل على أن نعيم الجنة باق وخالد، لا كما زعم بعض الفلاسفة أنه منقطع ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ ﴾ بنون العظمة تكرير للوعد المستفاد من قوله تعالى: ﴿وَمَا عَنْدَ اللهِ باقٍ﴾ على نهج التوكيد القسمي، مبالغة في الحمل على الثبات في الدين، أي والله لنجزينَّ ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ ﴾ على أذى الكفار، وعلى مشاق التكاليف، التي من جملتها الوفاء بالعهود ﴿ أَجْرَهُم ﴾ أي لنعطينهم أجرهم الخاص بهم بمقابلة صبرهم ﴿ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ أي بما كانوا يعملونه من الصبر المذكور، وإنما أُضيف إليه «أحسن» للإشعار لكمال حسنه، كما في قوله تعالى: ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ﴾[1] لا لإفادة قصر الجزاء، على الأحسن منه دون الحسن، على معنى لنعطينهم بمقابلة الفرد الأدنى من أعمالهم، نعطيه الفرد الأعلى منها.

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ .

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ أيَّ عملٍ كان، وهو ما كان لوجه الله ورضاه، ليس فيه هوى ورياء ﴿ مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ﴾ بيَّنه بالنوعين، دفعاً للتخصيص، ومبالغة في بيان شموله للكل ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ قيَّده به إذ لا اعتداد بأعمال

(١) سورة آل عمران، آية: ١٤٨.

الكفرة في استحقاق الثواب لقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً﴾[1] وإنما المتوقع تخفيف العذاب، وتدل هذه الآية الكريمة، أن الإيمان مغايرٌ للعمل الصالح، لأنه تعالى جعل الإيمان شرطاً، في كون العمل الصالح موجباً للثواب، وشرطُ الشيء مغايرٌ لذلك الشيء ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ في الدنيا، يعيش عيشاً طيباً، أما إن كان موسراً فظاهر، وأما إن كان معسراً فيطيب عيشه بالقناعة، والرضا بالقسمة، وتوقع الأجر العظيم، كالصائم يطيب نهاره بملاحظة نعيم ليله، بخلاف الفاجر فإنه إن كان معسراً فهو التعيس، وإن كان موسراً فلا يدعه الحرص وخوف الفوات أن يتهنأ بعيشه ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ حسبما نفعل بالصابرين، ونعطيهم الأجر الوافي على أحسن الأعمال، مع التجاوز عن السيئات.

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾.

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي إذا أردت قراءته، وهو من إطلاق اسم المسبب على السبب ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ أي فاسأله أن يُعيذك ويجيرك ﴿مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ من وساوسه كيلا يوسوس لك عند القراءة، وتخصيص قراءة القرآن، من بين الأعمال الصالحة بالاستعاذة للتنبيه على أهمية القرآن وعظم شأنه، ليستنير بنور القرآن، ويدفع عنه وساوس الشيطان[2]، والأمر للندب، وهذا مذهب الجمهور وعند بعضهم للوجوب، وظاهر الآية يدل

---

(١) سورة الفرقان، آية: ٢٣.

(٢) هذا هو الهدف من الاستعاذة، أن يدفع القارىء عن نفسه، وساوس الشيطان وهواجسه، ويصفو قلبه عند تلاوة القرآن، فيستنير بنور ضيائه، ويدرك معانيه وأسراره، دون أن يعبث الشيطان بروحه وقلبه، ولهذا كان سيدنا رسول الله ﷺ يستعيذ في بعض الأحيان بقوله: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، من نفْخه، ونفْثه، وهَمْزه» حمانا الله من شر إبليس اللعين!.

على أن الاستعاذة بعد القراءة لأن الفاء للتعقيب، ومذهب الجمهور من الصحابة والتابعين على خلافه، فقد اتفقوا على أن الاستعاذة مقدمة على القراءة، وعن ابن مسعود قال: «قرأت على الرسول ﷺ فقلت: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، فقال ﷺ قل: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» هكذا أقرأنيه جبريل عليه السلام عن اللوح المحفوظ».

﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾.

﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ ﴾ أي للشيطان ﴿ سُلْطَٰنٌ ﴾ تسلُّطٌ وولاية ﴿ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ أي إليه يفوّضون أمرهم، وبه يعوذون في ما يأتون وما يذرون، فإن وسوسته لا تؤثر فيهم، إلا على غفلة، ولذلك أمروا بالاستعاذة.

﴿ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

﴿ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ ﴾ أي تسلطه وولايته، بدعوته المستتبعة للاستجابة، لا سلطانه بالقسر أو الإلجاء، فإنه منتفٍ عن الفريقين ﴿ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ ﴾ أي يتخذونه ولياً، ويستجيبون لدعوته ويطيعونه ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ أي بسبب الشيطان مشركون بالله، إذ هو الذي حملهم على الإشراك، وقَصْرُ سلطانه عليهم دليل على أن لا واسطة في الخارج، بين التوكل على الله وبين تولي الشيطان، وأن من لم يتوكل عليه تعالى ينتظم في سلك من يتولى الشيطان، من حيث لا يحتسب، ففيه مبالغة في الحمل على التوكل، والتحذير عن مقابله.

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ﴾ أي إذا أنزلنا آية من القرآن، مكان آية منه، بأن ننسخها بها ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾ أولاً وآخراً حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة، فإن كل وقت مقتضٍ غير مقتضىٰ الآخر، فكم من مصلحة في وقت تنقلب في وقت آخر مفسدة، الانقلاب الداعية إلى ذلك، وما الشرائع إلا مصالح للعباد، في المعاش والمعاد، تدور حسبما تدور المصالح، كما أن الطبيب يأمر المريض بشربة، ثم بعد مدة ينهاه عنها ويأمره بضدها[1] ﴿ قَالُوٓاْ ﴾ أي الكفرة الجاهلون بحكمة النسخ ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ﴾ متقول على الله، تأمر بشيء ثم يبدو لك غيرُه فتنهىٰ عنه، وقد كان المشركون يقولون: إن محمداً يأمر بأمر اليوم، وينهى عنه غداً، ويأتي بما هو أهون، ولقد افتروا، فقد كان ينسخ الأشق بالأهون، والأهون بالأشق، وحكاية هذا القول للكفرة ناشئة من نزغات الشيطان ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أن في النسخ حِكَماً بالغة، وإسناده إلى الأكثر لما أن فيهم من يعلم ذلك، وإنما ينكره عناداً.

﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾.

﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ ﴾ أي القرآن ﴿ رُوحُ ٱلْقُدُسِ ﴾ أي جبريل عليه السلام، أي الروح المطهَّر من أدناس البشرية ﴿ مِن رَّبِّكَ ﴾ من عنده تعالى ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي ملابساً بالحق الثابت الموافق للحكمة ﴿ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ على الإيمان بأنه كلامه تعالى، فإنهم إذا سمعوا الناسخ، وتدبروا ما فيه من

---

(١) مَثَل آيات الذكر الحكيم، كمثل الدواء يُعطى منه للمريض جرعات، حتى يماثل به إلى الشفاء، ثم يستبدل به الغذاء، فيعطيه ما يناسبه من الأطعمة، ويمنعه من بعضٍ منها، مراعاةً لظروفه الصحية، كذلك كان القرآن يتنزَّل ببعض الأحكام ثم ينسخها بما هو ملائم لتطور الزمن.

رعاية المصالح، رسخت عقائدهم، واطمأنت قلوبهم ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ المنقادين لحكمه.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ﴾ كان كفار مكة يقولون: إنه أي محمد ﷺ يستفيد هذه الكلمات من إنسان آخر ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ يعنون بذلك «جبر الرومي» كان يصنع السيوف بمكة، ويقرأ التوراة والإنجيل وكان ﷺ يمر عليه ويسمع ما يقرأه ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ﴾ أي لغة الرجل الذي يميلون ويشيرون إليه أعجمي، والعجميُّ: هو الذي لا يُفصح في كلامه ﴿وَهَٰذَا﴾ أي القرآن الكريم ﴿لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ ذو بيان وفصاحة، والقرآن معجز بنظمه، كما أنه معجز بمعناه، فإن زعمتم أن بشراً يعلّمه معناه، فكيف يعلّمه هذا النظم الذي أعجز جميع أهل الدنيا؟ والتشبث بأذيال هذه الخرافات، دليل على كمال عجزهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي لا يصدقون أنها من عند الله، ويقولون فيها ما يقولون، يسمونها تارة افتراءً، وتارة أساطير، وأخرى معلَّمةً من البشر ﴿لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ﴾ إلى الحق، وإلى سبيل النجاة لسوء حالهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة، وهذا تهديد ووعيد لهم.

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ الآية ردٌّ لقولهم: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ﴾ ردَّ وقَلَبَ الأمرَ عليهم، ببيان أنهم هم المفترون، فالمفتري هو الذي يُكذِّب بآيات الله، ويقول: إنه افتراء من صنع البشر، وكلمة «إنما» للحصر، والمعنى: إن الكذب والفرية، لا يقدم عليهما إلاَّ من كان غير مؤمن بآيات الله، لأنه لا يترقَّبُ عقاباً عليه، ليرتدع عنه، وأما من يؤمن بها، فإنه يخاف من العقاب، فلا يصدر عنه تكذيب وافتراء، وهذا تهديدٌ لهم ووعيد، روي أن النبي ﷺ قيل له: هل يكذب المؤمن؟ قال: لا، ثم قرأ الآية: ﴿إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله﴾ ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ﴾ على الحقيقة، والكاملون في الكذب، إذ لا كذب أعظم من تكذيب آيات الله تعالى!!

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾.

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ﴾ تلفَّظ بألفاظ الكفر ﴿مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ﴾ ابتداء كلام لبيان حال من كفر بآيات الله بعد إيمانه، وحُذف جوابه كأنه قيل: من كفر بالله بعد إيمانه فعليه غضبُ الله ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ على ذلك بأمر يخاف على نفسه، أو على عضوٍ من أعضائه ﴿وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ أي إلا من أُكره فكفر والحال أن قلبه مطمئنٌ بالإيمان، ولم تتغير عقيدته، وفيه دليل على أن الإيمان هو التصديقُ بالقلب، رُوي أن كفرة قريش، أكرهوا عماراً وأبويه على الارتداد، فأباه أبواه فقتلوهما، وهما أول شهيدين في الإسلام، وأما عمار فأعطاهم بلسانه ما أكرهوه عليه، فقيل يا رسول الله: إن عماراً كفر، فقال ﷺ: «كلا إن عماراً مُلِيء إيماناً من قرنه إلى قدمه، فأتى عمار رسول الله ﷺ وهو يبكي، فجعل رسول الله ﷺ يمسح عينيه وقال: ما

لك؟! إن عادوا لك فعد لهم بما قلت»[1]. وفي هذا دليل على جواز التكلم بكلمة الكفر، عند الإكراه الملجىء، وإن كان الأفضل أن يجتنب عنه، إعزازاً للدين، كما فعل أبواه ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ أي اعتقده وطاب به صدراً ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ عظيم كائن ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وإظهار الاسم الجليل لتربية المهابة ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لعظم جرمهم حيث كفروا بعد الإيمان.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الوعيد المذكور ﴿بِأَنَّهُمُ﴾ بسبب أنهم ﴿ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي آثروها ﴿عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى﴾ إلى الإيمان، وإلى ما يوجب الثبات عليه، هداية قسر وإلجاء ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ما داموا مختارين الكفر، فلا يعصمهم عن الزيغ.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أي الموصوفون بما ذكر ﴿ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ﴾ فلا يتدبرون ولا يلتفتون إلى المواعظ، ولا يبصرون طريق الرشاد ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ أي الكاملون في الغفلة، إذ لا غفلة أعظم من الغفلة عن تدبر العاقبة.

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري ١/٤٦٦ المختصر، وهي رواية عن ابن عباس، وقد ذَكر أن أمه «سُميَّة» أول شهيدة في الإسلام، قتلها أبو جهل اللعين، وانظر مختصر ابن كثير ٢/٣٤٨.

﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾.

﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ أي حقاً إنهم الخاسرون، إذ ضيَّعوا أعمارهم، وصرفوها إلى ما يفضي إلى العذاب المخلد، ورأسُ مال الآخرة الإيمانُ، ومن ضيَّع رأس ماله فهو خاسر.

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ ﴾ إلى دار الإسلام، وهم عمار وصحبه ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ﴾ أي عُذّبوا على الارتداد، وتلفظوا بما يرضيهم مع اطمئنان قلوبهم بالإيمان ﴿ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ ﴾ في سبيل الله ﴿ وَصَبَرُوٓا۟ ﴾ على مشاق الجهاد ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا ﴾ أي من بعد المهاجرة والمجاهدة ﴿ لَغَفُورٌ ﴾ لما فُعل من قبل ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ ينعم عليهم مجازاة لهم على ما صنعوا وتحمَّلوا في سبيل الإسلام.

﴿ ۞ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾.

﴿ ۞ يَوْمَ تَأْتِى ﴾ أي يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴿ كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا ﴾ أي عن ذاتها تسعى في خلاصها لا يهمُّها شأنُ غيرها، فتقول: نفسي، نفسي، كقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ ﴿ وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ أي تعطى وافياً كاملاً ﴿ مَّا عَمِلَتْ ﴾ جزاء ما عملت ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ أي لا ينقصون من أجورهم، ولا يزاد في عقابهم.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً﴾ أي مثَّل لأهل مكة بقصة قرية كفرت نعمة الله، وجعلها مثلاً لأهل مكة خاصة، لأنهم كانوا في الأمن، والطمأنينة، والخصب، ثم أنعم الله تعالى عليهم بالنعمة العظمى، وهو بعثته ﷺ فكفروا به، وبالغوا في إيذائه، فلا جرم سلط الله عليهم البلاء، وعذبهم بالجوع سبع سنين، حتى أكلوا الجِيَف، فعذبهم الله بعذاب الدنيا لكفرهم النعم، والآية عامة لكل قوم أنعم الله عليهم، فأبطرتهم النعمة ففعلوا ما فعلوا، فبدل الله نعمتهم بالنقمة ﴿كَانَتْ ءَامِنَةً﴾ أي ذات أمن من كل مخوف، لا يُغار عليهم، كما قال الله تعالى: ﴿أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ والأمر في مكة كان كذلك، لأن العرب كان يغير بعضهم على بعض، وأما أهل مكة فقد كانوا يحترمونهم، ويخصُّونهم بالتعظيم ﴿مُّطْمَئِنَّةً﴾ أي لا يزعج أهلَها مزعجٌ، فهم في أمن واطمئنان، ورفاهية وسعادة، الهواء عليل، والصحة وافرة، وكما قيل: ثلاثةٌ ليس لها نهاية: الأمنُ والصحةُ والكفاية ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا﴾ أقواتُها والخيرات والأرزاق بسعة وكثرة، وورد النص بصيغة المضارع ﴿يأتيها﴾ لأن رزقها متجدد، وكونها آمنة ومطمئنة مستمر ﴿رَغَدًا﴾ واسعاً ﴿مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ من نواحيها لإجابة دعوة إبراهيم عليه السلام، وهو قوله: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾[1] ﴿فَكَفَرَتْ﴾ أي أهلها ﴿بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ نعم الأمن والرزق، وإيثار جمع القلة ﴿أَنْعُمِ﴾ للإيذان بأن كفران نعمة قليلة حيث أوجب العذاب، فما ظنك بكفران نعم كثيرة؟ ﴿فَأَذَٰقَهَا

(١) سورة إبراهيم، آية: ٣٧.

﴿ٱللَّهُ﴾ أي أذاق أهلها ﴿لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ شبه أثر الجوع والخوف، والضرر المحيط بهم، باللباس المحيط باللابس فاستعير له لفظ الإذاقة على طريق الاستعارة المكنية، روي أن ابن الرواندي قال لابن الأعرابي: هل يُذاق اللباس؟ قال ابن الأعرابي: لا بأس ولا لباس يا أيها النسناس، هب أنك تشك أن محمداً ما كان نبياً، أما كان عربياً[1]!! وكان مقصود ابن الرواندي الطعن في هذه الآية، وهو أن اللباس لا يذاق بل يلبس، فردَّ عليه شيخ العربية بأن هذا من أساليب العرب البليغة، وهو من أبلغ الكلام وأفصحه، كما قال الشاعر:

فطعم الموت في أمر حقير كطعم الموت في أمر عظيم

والموت ليس طعاماً حتى يشعر الإنسان بطعمه ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ من الكفر والجحود على وجه الاستمرار بحيث صار كفران النعمة كأنه صنعة لهم.

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ﴾ من تتمة المثل أي ولقد جاء أهل تلك القرية ﴿رَسُولٌ مِّنْهُمْ﴾ أي من جنسهم وقومهم، يعرفونه بأصله ونسبه، فأنذرهم سوء العاقبة ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ في رسالته، وفيما أخبرهم به ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ المستأصل لشأفتهم بعد ما ذاقوا نبذة منه ﴿وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ أي حال التباسهم بما هم عليه من الظلم، الذي هو كفران النعمة، وتكذيب

(١) ابن الرواندي هذا كان معروفاً بميله إلى الإلحاد، وفي قلبه ظلمة الشكِّ والضلال، ولهذا ردَّ عليه شيخ العربية ابن الأعرابي بهذا الجواب الشديد، الذي فيه غلظةٌ وجفاء.

رسوله، وفيه دلالة على تماديهم في الكفر والعناد، وبه يتم التمثيل، فإن حال أهل مكة ـ سواء ضرب المثل لهم خاصة، أو لمن سار سيرتهم كافة ـ مشابهةٌ لحال أهل تلك القرية، من غير تفاوت بينهما، كيف لا، وقد كانوا في حرم آمن، ويتخطف الناس من حولهم، وما يمر ببالهم طيف من الخوف، وكانت تجيء إليهم ثمرات كل شيء، ولقد جاءهم رسول منهم، فكفروا بأنعم الله، فأذاقهم الله لباس الجوع والخوف، حيث أصابهم ما أصابهم، وقد ضاقت عليهم الأرض، بما أصابهم من الجدب، حتى استنجدوا برسول الله ﷺ لكشف الضر عنهم، فلما فرَّج الله عنهم الكربة، عادوا إلى الكفر والضلال.

﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾.

﴿ فَكُلُوا۟ ﴾ مفرَّع على نتيجة التمثيل، وتحذير لهم عما يؤدي إلى مثل عاقبته، والمعنى: وقد استبان لكم حال من كفر بأنعم الله تعالى، وتكذيب الرسول، وما حلَّ بهم بسبب ذلك، فانتهوا عما أنتم عليه من كفران النعمة، وتكذيب الرسول، كيلا يحلَّ بكم مثل ما حلَّ بهم، واعرفوا حقَّ نعم الله، وأطيعوا رسوله، وكلوا ﴿ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ حال كونه ﴿ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ وذروا ما تفترون من تحريم البحائر ونحوها ﴿ وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ﴾ ولا تقابلوها بالكفران ﴿ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ أي تطيعون، إن صحَّ زعمكم أنكم تقصدون بعبادة الآلهة، عبادته تعالى!!.

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾.

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي إنما حرَّم الله عليكم هذه الأشياء الضارة كالميتة، والدم ولحم الخنزير.. الخ.

﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ ﴾ أي لا تقولوا الكذب في شأن ما تصفه ألسنتكم، من البهائم بالحل والحرمة، فتحلِّلوا وتحرّموا من تلقاء أنفسكم، من غير دليل ولا برهان، وتقولوا ﴿ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ ﴾ وكان العرب في الجاهلية، يحلّون أشياء، ويحرمون أشياء من عند أنفسهم، وينسبون ذلك إلى الله تعالى، وقوله تعالى: ﴿تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ﴾ من فصيح الكلام وبليغه، كأن ماهيَّة الكذب، وحقيقته مجهولةٌ، وكلامُهم يكشف حقيقته للناس ويعرِّفه، كقولهم: وجهُها يصفُ الجمالَ، وعينُها تصِفُ السِّحْرَ ﴿ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾ فإن مدار الحلِّ والحرمة، ليس إلا بأمر الله تعالى، من غير دخل لأحدٍ في التحليل أو التحريم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾ في أمر من الأمور ﴿ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ أي لا يفوزون بمطالبهم.

﴿ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ﴾ أي منفعتهم فيما هم عليه، منفعةٌ قليلة ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي لهم عذاب مؤلم موجع في الآخرة.

لمَّا حصر تعالى المحرمات، بالغ في تأكيد ذلك الحصر بهذه الآية.

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾.

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ﴾ خاصةً دون غيرهم ﴿ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ﴾ في سورة الأنعام ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ ﴾ بذلك التحريم ﴿ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ حيث فعلوا ما عُوقبوا به، وفيه تنبيه على الفرق بينهم وبين غيرهم في التحريم، وأن التحريم كما يكون للمضرة، يكون للعقوبة.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ أي بسبب جهالة، ليعمَّ الجهل بالله وبعقابه[1]، وعدم التدبر في العواقب، لأنَّ السوء لفظ جامعٌ لكل فعل قبيح، وكل من يفعله إنما يفعله بجهالة، لأن العاقل لا يرضى بفعل القبيح، والجاهلُ إنما يفعل القبيح للذَّة الهوىٰ، لا لعصيان المولى ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي من بعدما عملوا، والتصريح به للتأكيد والمبالغة ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ أعمالهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ أي من بعد التوبة ﴿لَغَفُورٌ﴾ لذلك السوء ﴿رَحِيمٌ﴾ يثيب على طاعته، وتكرار ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ لتأكيد الوعد.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ على انفراده، لحيازته من الفضائل البشرية، ما لا تكاد توجد إلا متفرقة في أمة جمة، حسبما قيل:

وليس على اللهِ بمستنكرٍ أن يجمعَ العالَمَ في واحد

وهو رئيس أهل التوحيد، وقدوة أصحاب التحقيق، جادل أهل الشرك ببينات باهرة، وأبطل مذاهبهم بالبراهين القاطعة، وإيراد ذكره عليه السلام، عقيب تزييف مذاهب المشركين، لأنهم يعترفون به وبحسن طريقته، ليصير حاملاً لهؤلاء على الإقرار بالتوحيد، والرجوع عن الشرك ﴿قَانِتًا لِلَّهِ﴾ مطيعاً له، قائماً بأمره ﴿حَنِيفًا﴾ أي مائلاً عن كل دين باطل ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ في أمر من أمور الدين، صرَّح بذلك مع ظهوره،

---

(١) الجهل أقبح من الخطأ وفوق الخطأ، فالمجتهد إذا أخطأ لا يسمى جاهلاً، ومن يفعل القبيح فهو الجاهل، الذي يستحق العقاب، ولهذا جاء اللفظ في الآية: ﴿عملوا السوء بجهالة﴾ ولم يقل بخطأ، فتدبر دقائق التعبير القرآني.

ليردَّ على كفار قريش في قولهم نحن على ملة أبينا إبراهيم، وعلى اليهود في زعمهم أن إبراهيم كان يهودياً لقوله تعالى: ﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين﴾[1].

﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ ﴾.

﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ﴾ أوثر صيغة جمع القلة، للإيذان بأنه عليه السلام لا يخل بشكر النعمة القليلة فكيف بالكثيرة ﴿ اجْتَبَاهُ﴾ للنبوّة ﴿ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ موصل إليه سبحانه، وهو دين الإسلام.

﴿ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾.

﴿ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ﴾ أي حالة حسنة جعلنا له الذكر الجميل في الدنيا، والثناء بين الناس، حتى إنه ليس من أهل دينٍ، إلاَّ وهم يحترمونه ويجلُّونه ﴿ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي من أصحاب الدرجات العالية في الجنة.

﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ مع علو طبقتك، وسموّ رتبتك، وفي «ثُمَّ» تعظيمُ منزلة نبينا ﷺ، والإيذان بأن أشرف ما أُوتي خليل الله عليه السلام من الكرامة، اتباع رسولنا ملته ﴿ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ والمراد بملته الإسلام، الذي عبر عنها آنفاً بالصراط المستقيم، والمأمور به الاتباع في الأصول، دون الشرائع المتبدلة بتبدّل الأعصار، ويحتمل أن تكون المتابعة، في كيفية

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٦٧.

الدعوة إلى التوحيد، وهو أن يدعو إليه بطريق الرفق والسهولة، وإيراد الدلائل مرة بعد أخرى ﴿حَنِيفًا﴾ أي مائلاً عن الشرك إلى الإيمان ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ معناه أنه كان من الموحدين في الصغر والكبر، وفيه تعريض بإشراك اليهود والنصارى.

﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾.

﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ﴾ أي فُرض تعظيمه، والتخلي فيه للعبادة، وترك الصيد فيه، وهذا تحقيق لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ المُشْرِكِين﴾ فإن اليهود كانوا يدَّعون أن السبت من شعائر الإسلام، وأن إبراهيم عليه السلام كان محافظاً عليه، أي ليس السبت من شعائر شريعة إبراهيم، التي أُمرتَ باتباعها، وإنما شُرع ذلك لبني إسرائيل بعد مدة طويلة ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ روي أن موسى عليه السلام أمر اليهود أن يجعلوا في الأسبوع يوماً واحداً للعبادة، وأن يكون ذلك اليوم يوم الجمعة، فأبوا عليه، وقالوا: نريد السبت، فأذن لهم في السبت، وابتلاهم الله بتحريم الصيد فيه، فاصطادوا فيه، فمسخهم الله قردة وخنازير، فاختلافهم في السبت، كان اختلافاً على نبيهم، لأن اليهود طبيعتهم التمرد والعصيان ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ بين الفريقين المختلفين فيه ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيجازي كل فريق، بما يستحقه من الثواب والعقاب.

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾.

﴿ٱدْعُ﴾ أي أُدع يا محمد الناس إلى دين الله، وشريعته القدْسية ﴿إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ أي إلى الإسلام الذي عبر عنه بالصراط المستقيم

﴿بِٱلْحِكْمَةِ﴾ أي بالمقالة المحكمة الصحيحة، وهو الدليل الموضح للحق المزيح للشبهة ﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ أي بالأسلوب المقنع، والعبر النافعة، بما يؤثِّر فيهم وينجع، لا بالقسوة والشدة ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ بالطريقة التي هي أحسن طرق المناظرة، من الرفق واللين، واختيار الوجه الأيسر، واستعمال المقدمات المشهورة تسكيناً لشَغَبهم، وإطفاء لِلَهَبِهم، كما فعله إبراهيم الخليل عليه السلام، فقصر الدعوة على هذين القسمين، وأما الجدل فليس من باب الدعوة، بل الغرضُ منه إلزام الخصم، ولذا قُطِعَ الجدلُ عن باب الدعوة ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي هو العالم بحال الضالين وحال المهتدين ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ أي ما عليك إلا ما ذُكر من الدعوة، والمجادلة، وأما حصول الهداية والضلال، بموجب استعداده المكتسب فإلى الله سبحانه، إذ هو أعلم بمن يبقى على الضلال، وبمن يهتدي إليه، وبعدما أمره ﷺ فيما يختص به من شأن الدعوة، عقبه بخطاب يعمُّ الكمال فقال تقدست أسماؤه:

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾.

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟﴾ أي إن أردتم المعاقبة، على طريقة قول الطبيب: «إنْ أكلتَ فكُلْ قليلاً» فعاقبوا ﴿بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾[1] أي بمثل ما فُعِل بكم، عبَّر عنه بالعقاب، على طريقة «كما تدين تُدان» والمقصود إيجابُ مراعاة العدل، فإن الدعوة المأمور بها لا تنفك عن ذلك ﴿وَلَئِن

(١) نزلت هذه الآية تسلية للنبي ﷺ حين قُتِل عمه حمزة رضي الله عنه، فلما رأى رسول الله ﷺ ما مثَّل المشركون به، حيث شقُّوا بطنه، وأخذوا كبده، وقطعوا أنفه، ومثَّلوا به وبسائر قتلى المسلمين تمثيلاً شنيعاً، قال ﷺ: «أَمَا والله لئن أظفرني الله بهم لأمثلنَّ بسبعين مكانك..» فنزلت الآية، وانظر كامل القصة في تفسير تنوير الأذهان من روح البيان بتحقيقنا ٢/ ٣٢٧.

﴿صَبَرْتُمْ﴾ عن المعاقبة بالمثل ﴿لَهُوَ﴾ أي لصبركم ذلك ﴿خَيْرٌ﴾ لكم من الانتصار بالمعاقبة، وإنما قيل: ﴿لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ مدحاً لهم ثم أُمر ﷺ صريحاً بما نُدب إليه غيره، لأنه أولى الناس بعظائم الأمور، لزيادة علمه ﷺ بشؤونه سبحانه، فقال جل ثناؤه:

﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

﴿وَٱصْبِرْ﴾ أي على ما أصابك من فنون الآلام ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ أي وما صبرك على الشدائد والمكاره، إلا بذكر الله وبتوفيقه وتثبيته ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي على الكافرين بوقوع اليأس من إيمانهم، كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ﴾ أي في ضيق صدرٍ، بالفتح والكسر، وهما لغتان أي لا يضق صدرك بمكرهم، وبما يقولونه من السفه والجهل، والفائدةُ في هذا التعبير، هي أن الضِّيق إذا عظم وقوي، صار كالشيء المحيط به، فذكر هذا اللفظ بهذا المعنى ﴿مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ أي من مكرهم بك فيما يستقبل، فالأول نهيٌ عن التألم بمطلوب فات، والثاني نهيٌ عن التألم بمحذور من جهتهم آت، وهما من لوازم الصبر، لزيادة التأكيد.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ تعليل لما سبق من الأمر والنهي، والمراد بالمعية الولاية الدائمة، لا يحوم حول صاحبها شائبة شيء، من الجزع والحزن، وضيق الصدر ﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ في أعمالهم، وقد نبَّه تعالى على أن كلاً من الصبر، والتقوى، من قبيل الإحسان، كما في قوله

تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضيعُ أَجْرَ المُحْسِنِينَ﴾[1] قيل لهَرَم ابن حيَّان عند القرب من الوفاة: أوصِ، فقال: إنما الوصية من المال، ولا مال لي، ولكني أوصيكم بخواتيم سورة النحل.

الحق عزيز، والطريق بعيد، والمركب ضعيف، والحقائق مصونة، والأسرار فيما وراء الغيب مخزونة، وبيد الخلق القيل والقال، والكمال ليس إلا لله ذي الكرم والجلال، سبحان ربنا رب العالمين، والصلاة والسلام على أفضل خلقه وآله وصحبه أجمعين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة النحل»

* * *

(١) سورة يوسف، آية: ٩٠.

obeikandl.com